

عربية القرآن

تأليف

الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع إسماعيل سرى - بالمنيرة
٣٥٥١٨٣٥





عربية القرآن

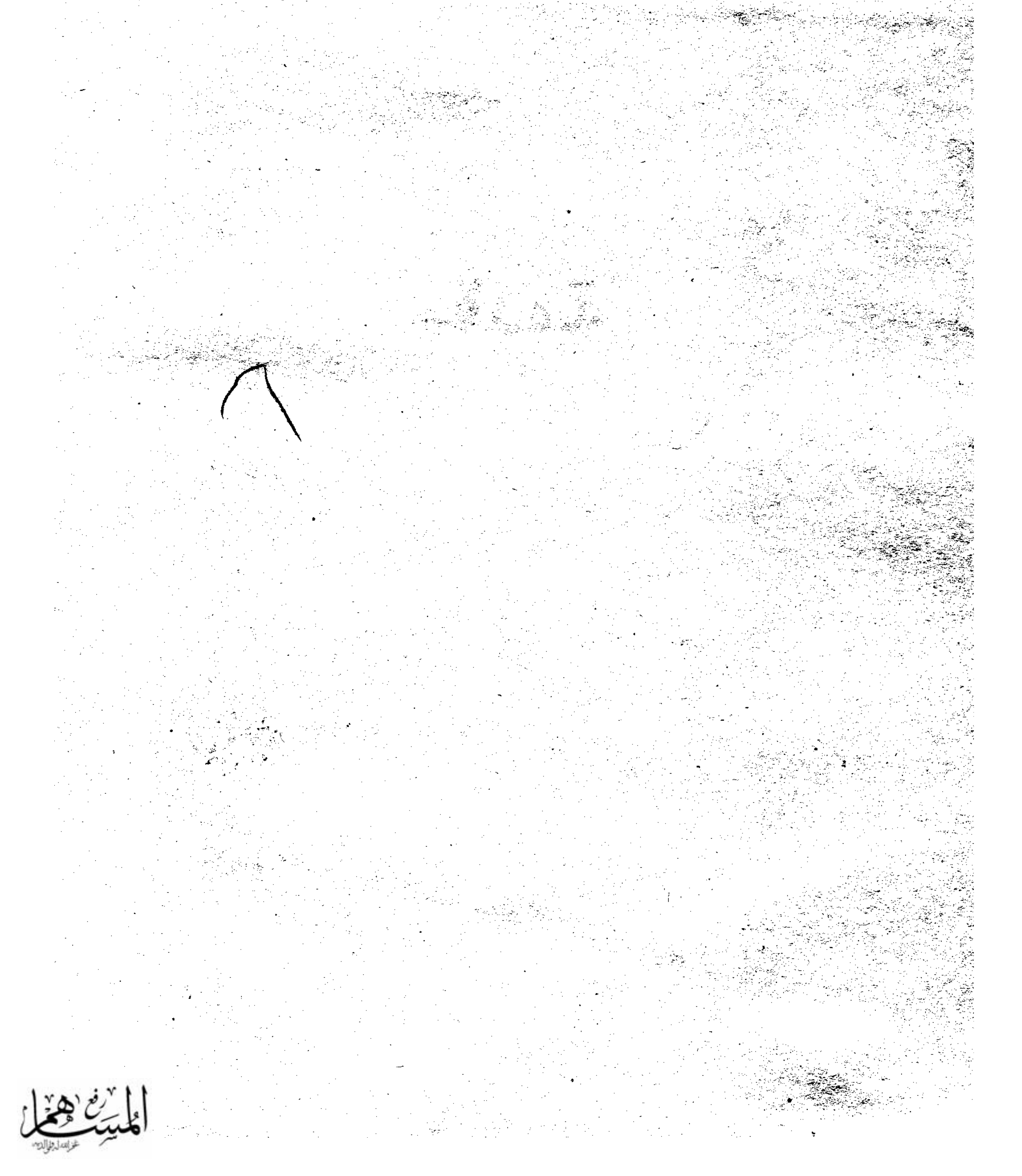
تأليف

الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

الناشر
مكتبة الشباب
٢٦ شارع إسماعيل سرى - بالمنيرة
٣٥٥١٨٣٠

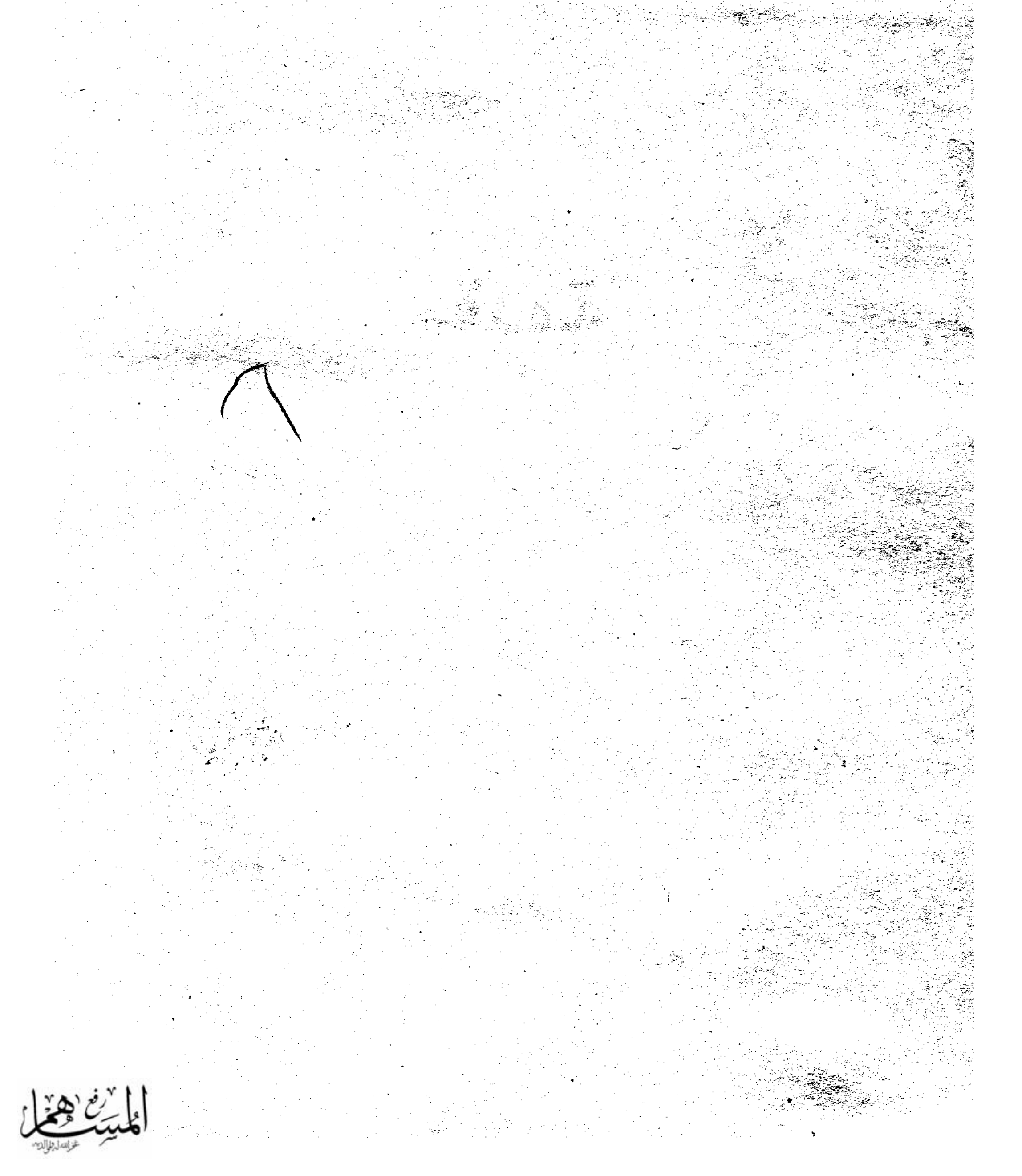


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة





الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد ..

فهذه دراسات (فى عربية القرآن) تستقبل القارئ العربى، وتهش له .. تريد أن تقول له : لقد ارتقيت مرتقى جليلاً يتصل بماهية وجودك ، وحقيقة مصيرك ، فالعربية والقرآن صنوان لا يفترقان ، وإن زعم الزاعمون خلاف ذلك .

وليس معنى هذا الارتباط صواب المقولة التى تشيع على ألسنة بعض المثقفة : بأن العربية لغة دينية ، وبأن زمانها قد مضى ، وبأنها ينبغى أن تخلى الساحة للغات الحضارة العلمية ؟! وتتوارى عن الأعين !!

هذا كله خلط وهذرمة ، فليس هناك لغة علمية ، ولغة دينية ، والقائلون بذلك مخطئون ، كما يجب أن نؤكد ، وإنما الصواب أن يقال : هناك أسلوب علمى ، وأسلوب دينى ، وكل لغة بالمعنى الصحيح – صالحة لتبنى الأسلوبين ، ومن خواص الأسلوب العلمي دقة الدلالة ، وكونها مباشرة .. لا لف فيها ولا دوران ، والأسلوب الدينى كالأسلوب الأدبى ـ فيه رمز ، يتسم بالوضوح أو بالغموض ، وفيه مجاز واستعارة وتشبيه .. يذهب العقل فى تفسيرها كل مذهب ، ويلتزم بحدود لا يتجاوزها .. من حيث الدلالة والبيان .

فليست علاقة العربية بالقرآن إلا كعلاقة الماء بمنبعه ، ولا شك لدينا فى أن القرآن هو النبع الذى تدفقت منه العربية (فيما بعد العصر الجاهلى) ، وبعبارة أوضح : لقد جاء القرآن بلغة ميسرة ملكت كل الألسنة ، وقامت

مفردات تلك اللغة على الانتقاء من ركام المفردات التى جرت قبل القرآن على ألسنة العرب ، وحفل بها معجم الشعر الجاهلى .

ولما كان وجود العربية قبل الإسلام وجوداً غير مدون فى معاجم ، فإن كثيراً من ألفاظ اللغة قد اندثر مع اندثار كثير من الأشعار التى تلاشت لقصور الرواية ، وتشتت القبائل ، وضعف الاتصال فيما بينها ، وما تبقى فهو راقد فى قرافات المعاجم !!

ولولا القرآن ، وما صاحبه من حرص على حفظه فى الصدور ، واستمرار مراجعته ، وتناقله ـ ثم ما كان من حرص الرسول ﷺ على كتابته بأيدى كتاب الوحى ـ لولا ذلك ما بقى من العربية إلا أقل القليل ، ولتشرذمت إلى عدة لغات بعدد لهجاتها .

فالعربية التى نتكلمها ونكتبها هى ـ بلا أدنى شك ـ بنت القرآن ووليدته ، وكل مانجد من اتصال بين الشعر الإسلامى والشعر الجاهلى إنما مر عبر القرآن ، كما أن ما عرفته العربية من تطور فى مجال المصطلحات العلمية قد تخلق فيها بفضل القرآن الذى ذخرت آياته بالكثير من الألفاظ المحددة الدلالة ، والتى اعتبرت بمثابة المصطلحات العلمية .

والذين يحفظون القرآن الكريم يظفرون ـ فى الواقع ـ بميزة تحصيل ثروة لغوية ، هى أكثر ما تعرفه لغتنا المعاصرة ، إلى جانب ما بقى مستعملاً من اللغة خارج النص القرآنى مستمداً من حصيلة الشعر الجاهلى ، ونثر ذلك العصر ، أى : إن ثمانين بالمائة من لغتنا المعاصرة هو قرآنى الأصل ، وعشرين بالمائة هى من حصيلة اللغة الجاهلية .

فالربط بين العربية والقرآن ليس بدعاً من القول ، وإنما هو تقرير لحقيقة تسعفنا ، بعد أن تولم دعاة الانفلات اللغوى فى عصرنا من العلمانيين وأهل

الجاهلية الجديدة .. دعاة التخريب الثقافي المتعلـقين بالعامـيات ، أو الذائبين في (دبأديب) اللغة الإنجـليزية ، النافرين من كل ما هو عربى أو إسلامى !!

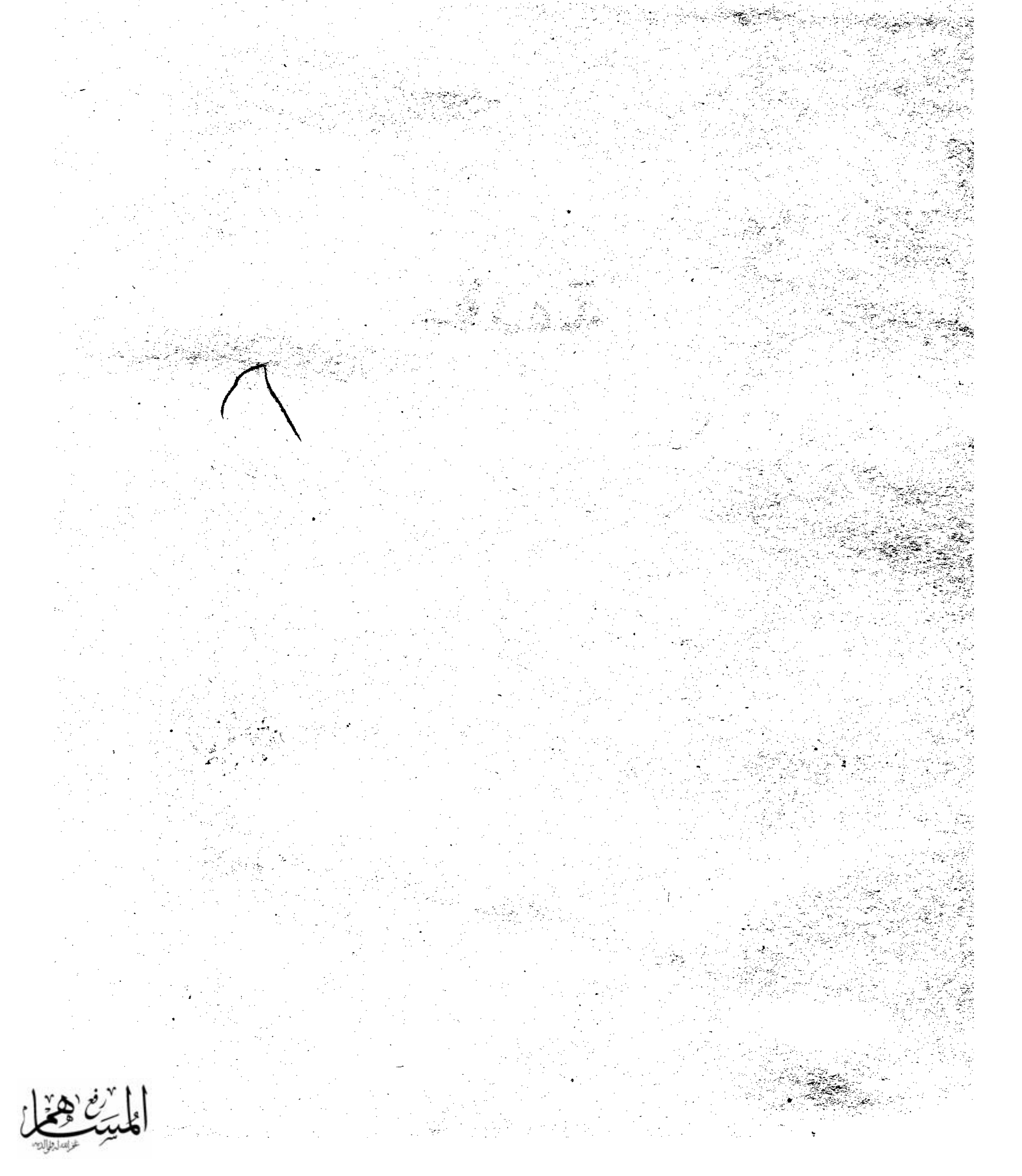
وإن موقف السلطة التربوية الآن من تدريس اللغة العربية والدين فى مدارس التعليم العام ـ لهو الشاهد الصارخ على مايرتكب من خيانة قومية ودينية لتجريد الأجيال الجديدة من مقومات الصـمود فى وجه العـدو الرابض على صدر الوطن .. إمعاناً فى تحقيق مخطط التطبيع العقلى والثقافى .. ألا لعنة الله على الظالمين !!

إننى أرجو أن يحسن القارئ استقبال هذه الدراسة التى ـ كما قلت ـ تهش له ، وترحب به .. جندياً ينخرط فى جيش العروبة والإسلام ، وأن تبقى عناصرها وأفكارها فى رصنيده الثقافى .. ترشيداً لمسيرته ، وتنويراً لعقليته ، وتدعيماً لقدرته على مواجهة احتمالات المستقبل القريب والبعيد .

والله ولى التوفيق ،،

د. عبد الصبور شاهين

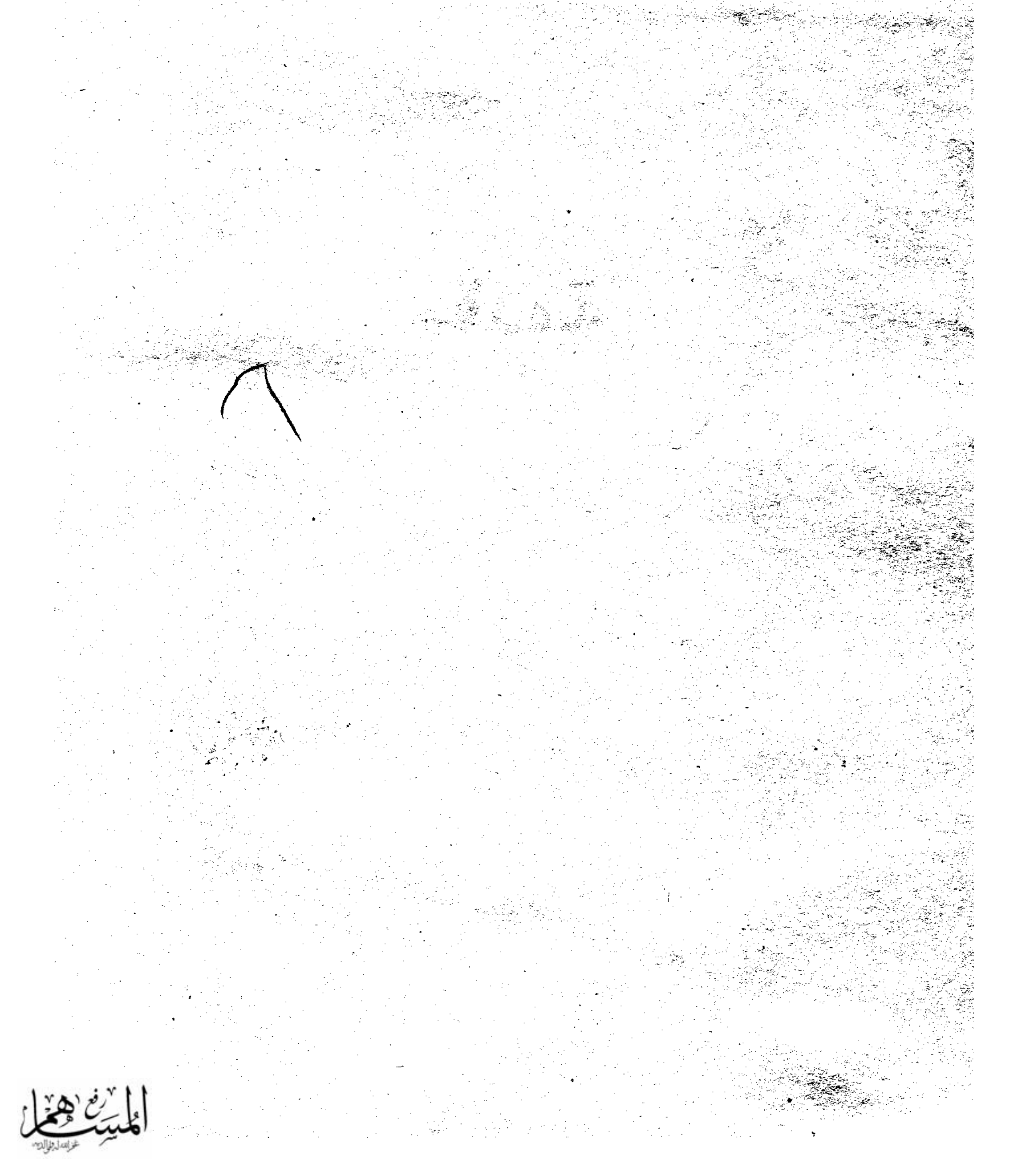
ربيع الآخر ١٤١٨هـ
أغسطس ١٩٩٧م



الفصل الأول

اللغة والبيان





اللغة والبيان صنوان متلازمان ، ويمكن أن يطلق كل منهما بمعنى الآخر ، من الناحية التعبيرية ، وإن لوحظ أن معنى (اللغة) أوسع وأعم ، فإشارة الأخرس لغة بالمعنى العام ، يفهمها من يحسن التعامل معه ، غير أن مجموع الإشارات عنده جد محدود ، لا يعبر إلا عن بعض الأغراض الأساسية ، كالرفض والقبول ، والاستحسان والاستهجان ، والطلب والعدد ، والرغبة والحب .....إلخ ....

أما ماعدا ذلك من المفاهيم التعبيرية ، فإن الإشارة لا تستطيع إفادته أو الإفصاح عنه ، وقد يشترك الأخرس فى استخدام الإشارة اللغوية مع بعض الحيوانات كالكلاب ، إذ إن لها مجموعة من الإشارات الحركية والصوتية يتعامل بها معها أصحابها ، وهو ما يشى بأن لديها قدراً من الذكاء يساعدها على تحقيق حاجاتها أو ضروراتها ، ولكن ذلك لا يتجاوز عدداً محدوداً من هذه الإشارات .

أما اللغة فى الاستخدام الإنسانى فإنها وسيلة صوتية للإبانة عما فى النفس أو العقل من رغائب حسية أو معنوية ، مادية أو تجريدية ، ممكنة أو مستحيلة ، من عالم الشهادة أو من عالم الغيب ، وفى كلمة واحدة : إنها وسيلة للتعبير عن الإنسان بكل أبعاده .

ولولاها ما كان الإنسان إلا نوعاً من الحيوان الأعجم ، الذى تملأ جموعه أرجاء المعمورة ، كالفيلة والأسود ، وسائر الوحوش التى تفسد فى الأرض ، وتسفك الدماء .

ومن هنا كان امتنان الله سبحانه على الإنسان ، بأنه (خلقه) و (علمه البيان) ، وذلك فى مطلع سورة (الرحمن) ، قال سبحانه : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان** ﴾ [الرحمن : ١- ٤] ، والمراد بالبيان هنا اللغة المبينة عما يرده هذا المخلوق ، والقرآن هو أشرف ما حملته اللغة الإنسانية من

بيان ، وأعظم ما تفيده هذه الآيات الأربع أن البيان والقرآن هما صنعة الله .

لكن من الواضح أن البيان كان وسيلة إلى تعليم القرآن ، والقرآن غاية هذا البيان فى أرقى مستوياته .

ولو أننا تابعنا قراءة سورة الرحمن بأكملها ، وهى تتحدث عن آلاء الله ، وما أسبغ علينا من نعم ، ظاهرة وباطنة - لوجدنا أن القرآن والبيان هما أجل هذه النعم ، وهما يتقدمان على سائر الموجودات فى الكون كله ، وهما مَجْلَى عظمة الله (ذى الجلال و الإكرام) .

فإذا ذهبنا إلى سورة (الروم) ، وتأملنا حديث رب العزة عن آياته الدالة على وجوده وعظمته - فسنجد أن نعمة اللغة تعدل فى صنع الله خلق السموات والأرض ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ [الروم : ٢٢] ، أى : إن دلالة خلق اللغة على وجود الله هى فى ميزان القدرة تعدل دلالة خلق السموات والأرض على هذا الوجود ، هذه آية وتلك آية ، ولا يدرك ذلك إلا أولو العلم وأرباب العقول ، وكأن الآية تشير إلى مجالات العلم التى أوجدها الله سبحانه للعالمين ، وأداة هذا العلم ، وهى اللغة ، بألسنتها المختلفة ، فكل الألسنة مستخدمة فى معرفة ما فى السموات والأرض من إبداع إلهى .

ولابد أن نذكر هنا أن الله سبحانه بعد أن خلق (البشر) سوّاهم ، ونفخ فيهم من روحه ، فأما (التسوية) فهى هندسة الطين ، ليكون (الصورة) المثلى ، كما أرادها الله سبحانه ، وأما (النفخ) فهو الذى يميز (البشر) عن سائر المخلوقات من الحيوان والطير والحشر ، ويتلخص أثر هذا النفخ فى نعم (العقل) ، ثم (اللغة) ، ثم (الدين) ، وقد تألقت هذه النعم فى الكيان البشرى عبر ملايين السنين ، وبذلك صار (البشر) مهيأ لتحقيق مراد الله من خلقه ، وهو عبادته وإعمار الأرض ، فكان (الإنسان فى أحسن تقويم) ،

وواضح أن (اللغة) هي ترجمان العقل ، وأن (الدين) ثمرته ، وأن مجموع هؤلاء الثلاثة يكون (الإنسان) بكل مقوماته .

وقد أطلق القرآن على (اللغة) اسم (اللسان) ، فكل لغة من لغات البشر هي (لسان) ، وهو ما يفيده قول الله في إشارته إلى (اختلاف الألسنة) .

لقد كانت اللغة في البدء لساناً واحداً ، ثم تشعبت بين الشعوب ، حين تكاثر النوع الإنساني ، فصار لكل شعب لسان يعبر به عن عقله ، ويصوغ به تعاليم الدين التي أوحاها الله إلى النبيين ، من لدن آدم ، إلى محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وقد اختار الله سبحانه أن تكون اللغة العربية - دون سائر اللغات الإنسانية - لسان القرآن ، كتابه المنزل ، قال سبحانه : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي أمين** ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] ، فجمع في الآية الأخيرة ثلاث خصائص للغة القرآن :

أولها : استخدامه كلمة (لسان) في التعبير عن (اللغة) .

وثانيها : وصفه اللسان بأنه (عربي) ، وهو شرف خص الله به هذه الأمة المسلمة على اختلاف ألسنتها .

وثالثها : أنه (مبين) ، وهي خاصة لا تتوفر لأي لسان في الأرض ، للتعبير عن مراد الله سبحانه في كتابه إلى الناس ، وكما أراد لكلامه أن يكون مبيناً .

فالبيان هنا مستخدم بالمعنى الأخص الذي يعبر عن القمة التي بلغتها اللغة في أداء مراد الله سبحانه ، وهي قمة لم تبلغها أية لغة ، في أي كلام أو فن من الفنون الإنسانية : شعراً أو نثراً .

والفرق بين كلام الله وكلام البشر ، هو كالفرق بين ما تبدعه القدرة من كائن ذي روح وعقل وإبداع ، وما تحدثه أصابع الأطفال من عرائس الرمال - ولله المثل الأعلى .

فإذا جاء في زماننا بعض من يسمون بالعلمانيين ليزرعوا الشك حول النص القرآني ، زاعمين أنه (منتج بشري - ثقافي) ، فإن هذه المزاعم نوع من الخبل العلماني الذي أصيب به هؤلاء الجهلاء المبتدعون والحاقدون .

وإذا تصور بعضهم أن القرآن (نص) قابل للنقد ، والأخذ والرد - رأينا في ذلك نوعاً من الرقاعة العلمانية التي تليق بمجموعات المنحلين عقلياً ، من أعداء الله ورسوله .

وإذا قال بعضهم : « إن النص القرآني ليس جديراً بأن يثق به ثقة مطلقة ، بل إن النص حجاب » - فإنه يعلن بذلك شهادة كفره وخروجه من الإسلام !! دون أن يحوجنا أن نسائله بذلك !!

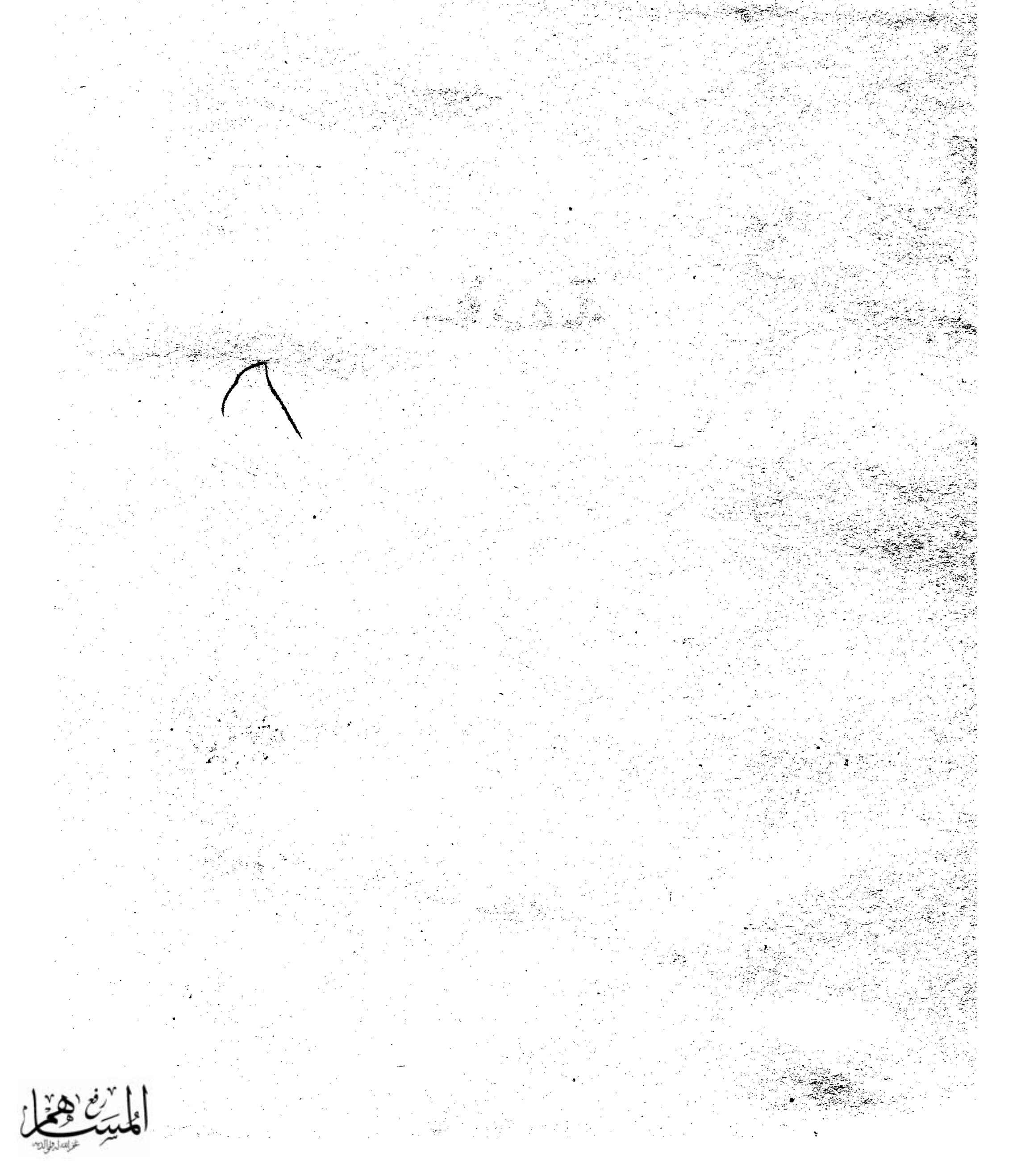
إن القرآن كلام الله ، وشرعه العلوي الذي ارتضاه عقيدة وشريعة نهائية لعباده ، وهو فوق محاولات النقد ، بل هو موضوع الإيمان المطلق ، ولا حاجة بنا إلى أن نتلقى توجيهات علمانية تتدخل في تكييف علاقتنا بديننا ، وكلام ربنا ، ودستور حياتنا : قلباً ولساناً .

***

الفصل الثانى

لغة قديمة ولغة معاصرة





توصف اللغة بأنها (قديمة) بمعنى أنها كانت لسان قوم من شعوب الأرض فى غابر الأزمان ، ثم عفى عليها الزمن ، وتغيرت الظروف فطمرتها تحت الرمال ، ومن هذا النوع مما عرفت البشرية من اللغات الكثيرة : اللغة الهيروغليفية ، فى مرحلتها الأولى المسجلة فى الكتابات الصورية على جدران المعابد الفرعونية ، وأيضاً صورتاها المتطورتان عنها : الهيراطيقية ، والديموطيقية ، وقد درست معالم هذه اللغة فلم تعد إلا آثاراً منقوشة يفسرها المؤرخون ، إن صواباً ، وإن خطأ ، لأنها لغة انقطع حبلها ، وحلت محلها لغات أخرى ، كاليونانية ، والرومانية ، والقبطية ، ثم حلت محلها أخيراً العربية ، التى ورثت لسان مصر إرثاً شاملاً ونهائياً .

وتوصف اللغة أيضاً بأنها (قديمة) بالنسبة إلى وضعها الراهن ، لا تجرى بها ألسنة العامة ، وإنما يتحدث بها طبقة خاصة من الناس ، يتشبثون بها ، استبقاء لمعنى تاريخى ، وذلك كاللغة القبطية ، التى ورثت الديموطيقية فى مصر ، ولكنها دخلت فى صراع مع اليونانية ، والرومانية ، على توالى الموجتين الاستعماريتين على أرض مصر ، فقد دخلها اليونان عام ٣٣٢ قبل الميلاد بقيادة الإسكندر الأكبر ، وبقوا فيها حتى جاء الرومان عام ٣٠ قبل الميلاد ، إثر هزيمة الملكة كليوباترا السابعة ، فخرج اليونان ، ودخل الرومان .

وقد تعرضت القبطية لصراع مرير مع اللغتين ، وتبلبلت ألسنة المصريين ما بين اللغات الثلاث القبطية ، والإغريقية ، والرومانية طيلة تسعة قرون ، ابتداء من عام ٣٣٢ قبل الميلاد حتى عام ٦٤٠ للميلاد ، حين جاء الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فأسقط حكم الرومان عام ٢٠ للهجرة ، وأقام نظام الإسلام فى الأرض الجديدة .

كانت القبطية آنذاك لغة مثخنة بالجراح ، متقلصة على ألسنة أهل مصر ،

وبدأ الناس مواجهة الخيار المضطرب ، والصراع الحاد بين لغات أربع ، تمثلها بقايا اليونانية ، والرومانية ، وشبح القبطية ، وفتوة العربية المنتصرة ، وسرعان ما حسم الصراع لصالح العربية ، فلم تمض سوى بضع عشرات من السنين (حوالى ٦٦ سنة) حتى عربت الدواوين فى عهد الوالى عبد الله بن عبد الملك (عام ٨٦ للهجرة) ، ومعنى تعريب الدواوين أن اللغات الأخرى قد انهزمت فى صراعها مع العربية ، وأن الشعب وجد أن العربية هى أكثر تحقيقاً لمصالحه الحيوية ، ودخلت القبطية بذلك إلى مجال اللغات القديمة التى تدل عليها بقايا مختلطة على ألسنة بعض الرهبان ، داخل الأديرة والكنائس القبطية .

ومعنى ذلك أن وصف اللغة بأنها قديمة يعنى انسحابها من الاستعمال الشعبى ، وهو ما يترتب عليه قصورها عن استيعاب المفاهيم المتجددة ، وبذلك تحل محلها لغة أخرى أكثر استجابة لمطالب الحياة الجديدة .

أما وصف اللغة بأنها (معاصرة) فإن معناه أن اللغة جارية على ألسنة أهلها ، مواكبة لتطورات حياتهم ، مستجيبة لمطالب عصرهم ، وهو معنى يبرز فى وضع اللغات المنتشرة على سطح الأرض فى زمن معين ، كالعربية والإنجليزية والفرنسية والصينية ، وسائر اللغات المنطوقة الآن ، وعليه يمكن أن نقرر أن كل لغة قديمة كانت ذا زمان لغة معاصرة لوقتها ، ثم دلفت إلى غياهب القدم .

غير أن مقياس القدم يختلف من لغة إلى لغة ، باعتبار ثبات معجمها الإفرادى والتركيبى ، أو تغيره ، فاللغات الأوروبية المعاصرة توصف بالقدم إذا مر عليها عدة قرون فقط ، ومثال ذلك اللغة الإنجليزية فى عهد تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ للميلاد) أو فى عهد شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦ للميلاد) فهى تعتبر لغة قديمة ، ولم يمض عليها سوى خمسة قرون أو ستة !!

بل إن الإنجليزية منذ قرنين فقط توصف بالقدم ، لأن أغلب كلماتها آنذاك قد انسحبت من الاستعمال الآن ، ولأن هناك مؤثرات تكاد تقفز بهذه

اللغة قفزاً سريعاً ، ولاسيما فى المجتمع الأمريكي ، حتى إنها كادت تستغرب على ألسنة أهلها إذا مر عليها عدة أجيال محدودة .

وأعجب ما رأت عيناى فى المكتبات الإنجليزية أن أمناءها (يجردون) محتوياتها بحثاً عن الكتب التى مضى على طبعها خمس وعشرون سنة ، بحجة أنها صارت قديمة فى لغتها ومعلوماتها ، فهى كتب من المهملات .

قارن هذا بما نفعل نحن الآن بكتبنا ومخطوطاتنا العربية ، التى مضى عليها عشرة قرون أو أكثر ، ماذا نفعل فى تحقيقها وطبعها واقتنائها ؟ بل ماذا نفعل بالنصوص التى مر عليها خمسة عشر قرناً أو أكثر ؟ ...

إن هناك فرقاً هائلاً بين العربية وغيرها من اللغات ، وهذا الفرق يتمثل فى أن المعجم الإفرادى والتركيبى للعربية يتميز بالكثير من الثبات والاستقرار ، نظراً إلى وجود القرآن الكريم ، وبيانه فى الحديث الشريف ، وهما حد ما بين العربية القديمة ، على لسان أهل الجاهلية ، والعربية المعاصرة على ألسنة الأمة المسلمة ، فهذه العربية مقروءة ومكتوبة ومحفوظة فى صدور الأجيال منذ كان الإسلام ، وما زالت الأمة تتعبد بحروف لغة القرآن ، ترتيلاً وتجويداً وموسقة ، بل مازالت لغة القرآن هى الأنموذج الأمثل الذى يحتذى على أقلام الكتاب المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم وموضوعاتهم وأهواؤهم .

ومن ثم لا يمكن تطبيق مقياس القدم والمعاصرة الذى صلح لوصف الإنجليزية – على اللغة العربية ، لأن الإنجليزية المعاصرة اختلفت عن القديمة (منذ قرنين مثلاً) – فى المفردات والتراكيب ، بل إن بنيات بعض الضمائر قد تغيرت ، كما نجد فى الضمير (you – أنت) الآن ، وقد كان منذ بضعة قرون (thou) ، وليس من ينكر هذا التغير فى كلمة من أقدم كلمات اللغة وأشهرها .

إن العربية كما ينبغي أن نقرر حالة فريدة بين جميع لغات العالم ، قديمها هو ما كان قبل نزول القرآن ، ومعاصرها هو ما جاء في مادة القرآن وبيانه في السنّة .

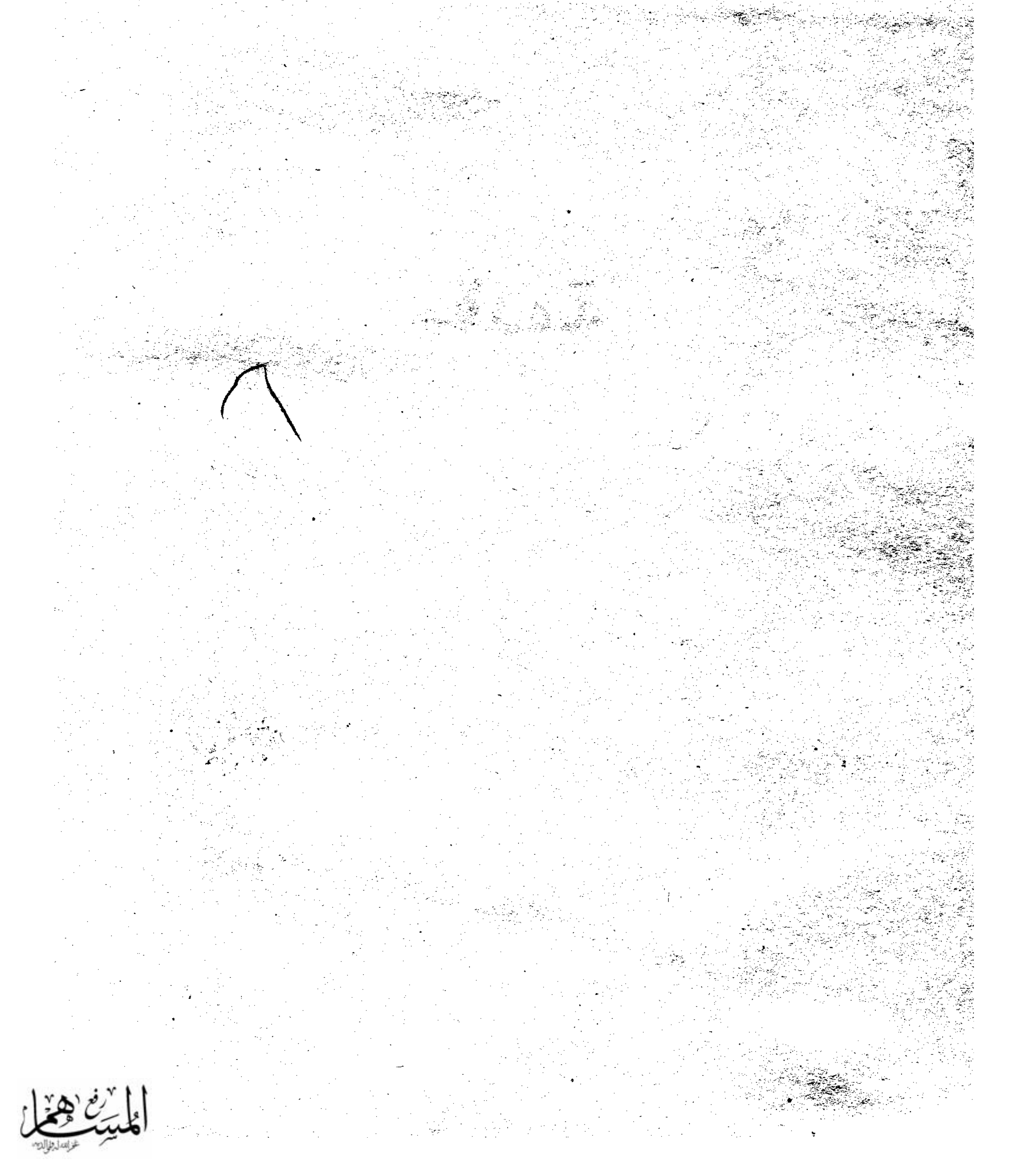
وليس معنى ذلك أن معجم العربية قد تجمد أو تحجر عند المادة القرآنية ، فقد استوعبت اللغة واقترضت كثيراً من المفردات والتراكيب والأساليب الجديدة ، التي أبدعتها عبقرية الأجيال ، مع المحافظة التامة على أداء اللغة في أصواتها ولحنها ونبرها ، ونظامها الهجائي ، وبنائها التصريفي ، وضبطها الإعرابي ، مع ثراء دلالات الألفاظ وتغير جزئياتها ، رفعة وضعة ، ضيقاً وسعة .

إن هناك كثيرين من أنصاف المثقفين يحاولون التشكيك في هذه الحقيقة ، ويرون - جهلاً أو قصوراً - أن العربية قد انتهى زمانها ، وأنها الآن إحدى اللغات المتخلفة التي ينبغي أن تحال إلى التقاعد ، أو توضع في المتحف ، وهو وهم يدفعهم إليه ، أو يفرضه عليهم (علّمانية الانتماء) ، والعلمانية لا تريد أن ترى على وجه الأرض مسلماً صحيح العقيدة ، ولما كان هناك ارتباط حيوي بين الإسلام والعربية ، فلتذهب العربية أيضاً - وفيما يتمنون - إلى الهاوية .. أماني أحقاد ، وعبث ملحدين ..

وموقف العلمانيين من اللغة العربية موقف غريب ، فهم يرفضونها في مجال العلوم ، ويقصرونها على مجال الأدب ، ويروجون للإنجليزية باعتبارها لغة العلم والحضارة ، والعربية لغة التخلف والضياع ، ثم إنهم يطاردون العربية في مجال الأدب أيضاً ، ويرون أن الكتابة بالعربية ليست واقعية ، وإنما الواقعية هي الكتابة باللهجات العامية ، ومازال العلمانيون على اختلاف مواقعهم ، في الثقافة والتربية والإعلام ، بل في الدعوة أيضاً - يحاربون الكلمة الفصحى ، ويشوهون صورة اللغة النقية ، ويفرضون على آذان الجماهير ذوق العاميات : حتى ألف الناس الأخطاء ، وصارت من مكونات ملكاتهم الكلامية ، وكل ذلك حرباً للعربية والإسلام ، وتحدياً لله ورسوله .

ولو كان الاحتكام إلى العقل لأغنانا عن كثير من الجدل فى هذا المقام ، ولكن الاحتكام هنا إلى الغوغائية ، والهذر ، والفوضوية ، مع التمتع بالنفوذ الوظيفى ، والدعم الماسونى ، وما شئت من مؤسسات التخريب الحضارى ، والهدم العلمانى ، وهذا موضوع تختلط فيه كل الاعتبارات الثقافية والاجتماعية والسياسية ، والحضارية بشكل عام .

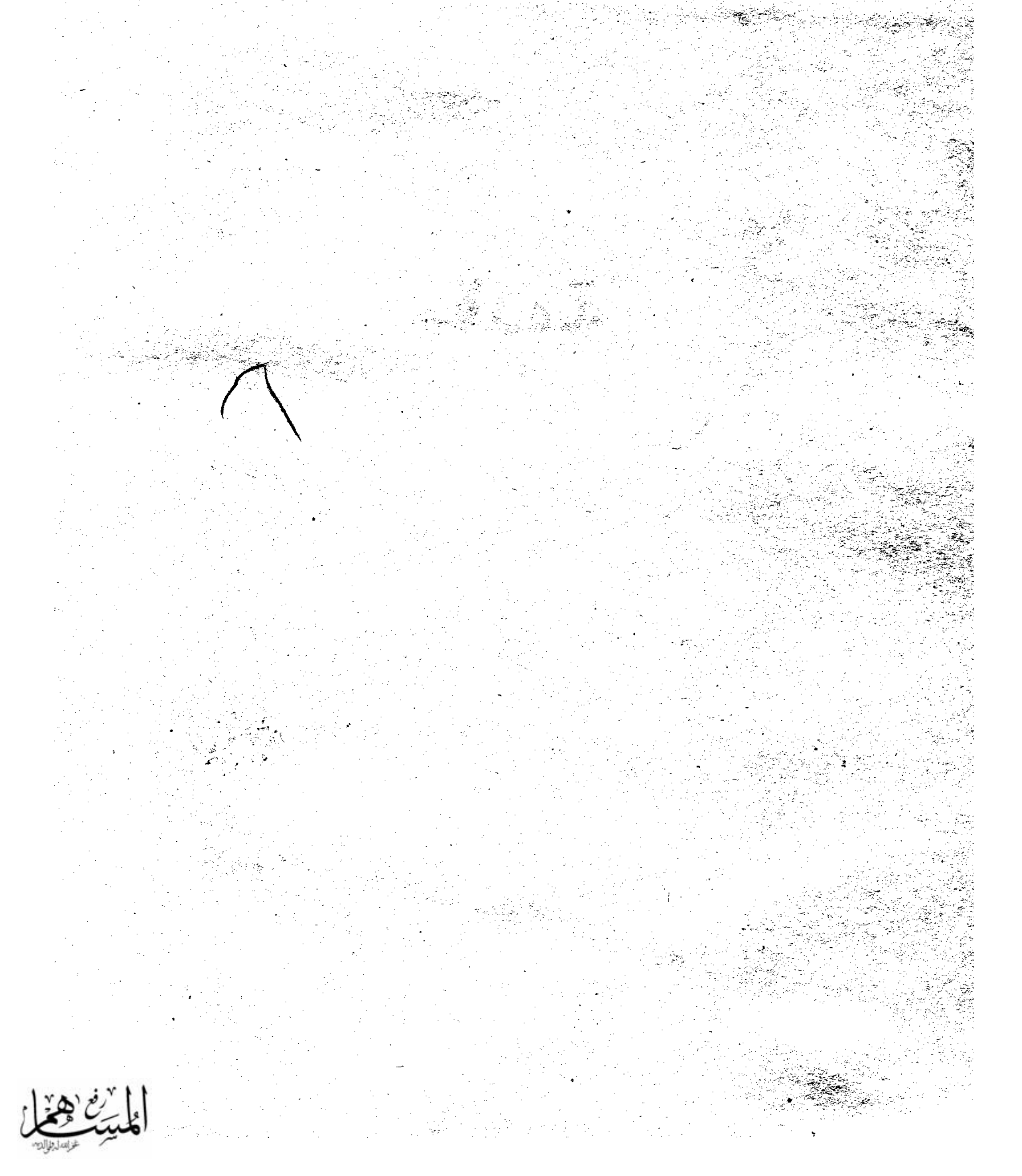
***



الفصلَ الثالث

اللغة العربية المشتركة





إن تاريخ هذه العربية تاريخ بعيد .. يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرون كثيرة ، حتى لقد وجدنا الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يكتب كتاباً يقرر فيه أن الثقافة العربية أقدم وأسبق من ثقافة اليونان والعبريين (١) .

وهو يقرر فى هذا الكتاب الفريد : أنه قد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة ، وهم معروفون بهذا الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ، ويطلقه عليهم غيرهم ، وقد كانوا من قبل ذلك يسكنون هذه الجزيرة العربية قبل ذلك أيضاً بقرون ، ثم يقول : ولا خلاف كذلك فى قدم اللسان العربى فيها ، ولا فى أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ، ولم يعرف لهم لسان قبله مخالف له فى أصوله وخصائصه ، ثم تساءل : أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرناً مقيمين بالجزيرة العربية ، أم كانوا مقيمين فى موطن آخر ثم هاجروا إليها ؟

فاستعمال العربية فى رأى الأستاذ العقاد كان على ألسنة أهلها منذ أكثر من ثلاثين قرناً ، غير أنه يقرر بعد ذلك : أن عربية ذلك الزمان السحيق لم تكن هى عربية اليوم ، وهو أمر طبيعى ، ولكنها كانت فى صورة لغة أخرى ، هى الآرامية التى كانت عربية تلك الأيام فى موطنها ، وأنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة ، ويختم حديثه بقوله : « وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية فى لغتها ، ونشأتها ، ونسبتها إلى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية فى عهودها الأولى ، فكل ما

---

(١) سلسلة (المكتبة الثقافية) العدد (١) وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية » .

وليس الأستاذ العقاد منفرداً فى رأيه هذا .. بل سبقه إلى ما هو أكثر منه بلوغاً فى الزمان باحث عربى آخر هو الأستاذ محب الدين الخطيب الذى وصل بالوجود العربى فى الجزيرةوما حولها إلى أبعد مما وصل إليه العقاد ، فمن المعلومات التاريخية المقررة الآن أن أول موجة هاجرت من الجزيرة العربية إلى العراق كانت عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد ، أى : منذ ستة وخمسين قرناً ، وبذلك يكون ظهور إبراهيم عليه السلام فى العراق ـ حدثاً عربياً فى شكله العام ، وإن انتمى إلى بعض القبائل التى تحمل اسم الكلدانيين ، وهم قوم من الساميين ، أو العرب بشكل عام .

ويقدم المؤلف تفسيراً لهذا الالتقاء التاريخى فى تصوره فيقول : « إن اللغات السامية ، وهى اللغات التى كان يتكلم بها الكلديون والآشوريون فى العراق ، والسريانيون والفينيقيون والعبرانيون فى الشام والحبشة وراء الساحل العربى من بحر القلزم [البحر الأحمر] – كن فى العصور الأولى متشابهات بحيث يعتبر كلهن لهجات للغة واحدة .

ولذلك استطاع سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يتنقل بين العراق والشام ومصر والحجاز ، وأن يتفاهم مع جميع سكان تلك الأقطار ، إذ لم يكن بين لغاتها من فرق إلا كما يوجد الآن بين لهجات العربية فى المغرب ومصر والشام وسائر هذه البلاد .

ولا نستطيع القول بأن واحدة منهن هى الأصل ، والأخرى فروع لها .. بل الراجح أن اللغة الأصلية التى ترجع إليها هذه اللغات ـ ذابت فيهن .

غير أن الحالة التى كانت عليها اللغات السامية جميعاً قبل ظهور الإسلام تحملنا على القول بكل جزم وتأكيد ـ أن العربية أرقاهن ، ومعنى هذا أنها

أعرقهن فى القدم ، فلا يبعد أن تكون هي البنت البكر لأمها السامية الأولى »[1] .

غير أن هذا التاريخ الذى أشار إليه الأستاذان العقاد والخطيب غامض غموضاً شديداً ، نظراً إلى أن هذه اللغة لم تتطور فى وسط حضارى .. بل كانت القبائل التى تكلمت بالعربية فى التاريخ منعزلة وسط بحار من الرمال ، فيما سمى بشبه الجزيرة العربية ، ولم يؤثر عن هذه القبائل أنها كانت تعرف شيئاً عن فنون التسجيل الحضارى كالنقش على الحجر ، أو كالكتابة على البردى ، أو كالتماثيل والمعابد والأديرة ، وهو ما سجلت عليه الحضارة الفرعونية فى تاريخ مصر القديم ، فحفظت لنا به معالم تلك الحقبة الخالدة فى تاريخ الإنسانية .

إن التاريخ العربى فيما قبل الحقبة المسماة بالعصر الجاهلى يتلخص فى عبارة واحدة هى : (هنا ولد أعربى ومات) ، فهذا القدر هو الذى جرى على كل عربى فى تلك الجزيرة ، فى ذلك التاريخ البعيد ، الذى شهد تطور العربية واستواءها على ألسنة أهلها من بدو الصحراء .

وقد حاول بعض المستشرقين أن يكشفوا فى حفرياتهم شيئاً من هذا التاريخ ، ومن ذلك أنهم قدموا لنا بعض النقوش التى عثروا عليها فى بادية الشام ، فى حوران ، وفى زبيد ، وفى النمارة[2] ، وقالوا : إن ما وجد بها من نصوص يعد تصويراً لطفولة هذه اللغة ، ولكن التحقيق العلمى كشف عن أن هذه النصوص تنتمى إلى اللغة الآرامية ـ التى هى مرحلة عربية ـ إلى جانب أنها ضحلة ، وأكثر مضمونها أسماء أشخاص لا تعطى فكرة واضحة عن لغتها .

---

(١) اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب – بحث تاريخى فى الهجرات العربية منذ ستة آلاف سنة ، وفى أن أصل الكلدانيين والفينيقيين من العرب – للمرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب .

(٢) ارجع فى هذا إلى كتاب (مصادر الشعر الجاهلى) للدكتور ناصر الدين الأسد ـ طبعة دار المعارف .

وهكذا نقف فى عماية وغموض إذا ما حاولنا كشف شىء ، ولو قليل عن طفولة هذه العربية الفصحى .

ولكن هذا لا يمنعنا أن نؤكد أنها كانت كسائر لغات البشر ذات طفولة استمرت عدة قرون إلى أن شبّت عن الطوق ، فكانت هذه اللغة المثالية الراقية التى تتمثل فى لغة الشعر الجاهلى .

وليس من المعقول أن نعتبر الشعر الجاهلى هو البداية الحقيقية لهذه اللغة ، فليس من سنن الله فى تكوين اللغات أن تكون فى منشئها على هذا النسق الرفيع ، وذلك النضج المكتمل ، وإنما الطبيعى أن لغة الجاهلى قد مرت خلال أحقاب تاريخية طويلة بمراحل تطورية هائلة .. تم خلالها صقلها على هذه الصورة العجيبة ، فاكتمل لأصحاب اللغة ذلك المستوى الراقى من القدرة على البيان ، فصاغوه .. نثراً فى خطبهم ، وشعراً فى قصائدهم ومعلقاتهم ، وانتهى إلينا مما قالوه نماذج تعد قمة لا تدانيها محاولات الشعراء والبلغاء على مر الزمان ، وربما لو ذكرنا هذين البيتين :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل　　　منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها　　　لمعت كبارق ثغرِك المتبسم

دون أن نعرف قائلهما لحسبنا أنه أحد الشعراء المولهين المغرمين .. من المعاصرين ، ولكم يروعنا أن نعرف أنه عنترة بن شداد .. أحد فرسان الجاهلية ، وأحد شعرائها الأفذاذ ، وليس ما يروعنا منه هو تلك السلاسة فى التعبير فحسب ، ولكنها كذلك القدرة على صوغ هذا الموقف الغنى بالعناصر النفسية فى تلك العبارة الموجزة ، وذلك التعبير الأخّاذ الساحر الممتلىء أدباً وتصوناً .. المتنزه عن الإسفاف فى تصوير المشاعر العاشقة .

ولغة على هذا المستوى لا تكون فى بدايتها ، وإنما فى قمة نضجها ، وفى

أوج ازدهارها ، وهى مرحلة لا تبلغها اللغات قبل أن تدب عشرات القرون على أربع ، ثم على رجلين ، ثم تستوى ناهضة لتطير بجناحين ، وهى فى خلال هذه المراحل التطورية تهذب من صيغها ، وتطور أصواتها ، وتنقى تراكيبها ، وتصفى معانيها ، وتضيف إلى محصولها من اللغات المجاورة التى تحتك بها ، إلى أن يتم لها كيان لغوى ذو سمات مكتملة .

على أن وضع اللغة العربية كان فى الحق ممتازاً عن سائر أخواتها من اللغات السامية .. إذ إنها قد انعزلت فى بيئاتها الصحراوية ، وابتعدت عن الاحتكاك باللغات المجاورة كثيراً ، ولذلك يقرر اللغويون أنها أقرب أخواتها الساميات إلى اللغات السامية الأم (على فرض وجودها) لأنها احتفظت بعدة عناصر امتازت بها الفصيلة السامية على سائر اللغات المعروفة ، ثم انقرضت هذه العناصر من بقية أخواتها كالعبرية والسريانية والآرامية التى كانت مرحلة من مراحلها التاريخية فى رأى الأستاذين العقاد والخطيب .

وأبرز مثال على ذلك ظاهرة الإعراب التى تلازم أواخر الكلمات فى العربية ، فهى ظاهرة سامية قديمة .. توجد بعض بقاياها فى الأكدية ، ولكنها انقرضت من سائر اللغات السامية ، وما ذلك إلا لأن العربية قد انعزلت فى الصحراء . بعيداً عن عوامل التأثير باللغات المعاصرة لها ، والتى كانت تتأثر فى الواقع باللغات الغالبة عليها ، كالفارسية والرومية والإغريقية .

ومن المسلم به تاريخياً أن العرب كانوا أمة متفرقة إلى قبائل ، وأن هذه القبائل قد حدث فيما بينها صراع هائل خلال قرون طويلة ، وشبت بينها حروب استمرت أحياناً إلى مائة عام .. غير أنها كانت أحياناً تميل إلى التواصل ، وبخاصة فى ظل المقدسات التى تركزت فى مكة ، وكانت مكة فى الواقع أشبه بقلب الجزيرة العربية .. يفد إليها الحجيج رجالاً وعلى كل ضامر ، ومن كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم .. على حد تعبير القرآن .

وعلى الرغم من أن العربية ارتقت إلى درجة سامية فى مجال الشعر والنثر ، وسائر فنون التعبير – فإن هذه اللغة قفزت قفزة هائلة بنزول القرآن (بلسان عربى مبين) وإذا وصف القرآن في الآية بأنه ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ – فإن معنى ذلك أن البيان لم يتوفر لنص لغوى قبله فى مستوى بيانه .

وبوسعنا أن نقول : إن نزول القرآن كان بمثابة (الثورة) اللغوية التى وضعت العربية على بداية الطريق إلى الحضارة الثقافية ، أو الثقافة الحضارية ، والتى بدأت عملية إبداعية هائلة ، فى مجال العقل المسلم ، ونشأت علوم كثيرة ما كان لها أن تكون لولا نزول القرآن .

فعلوم التفسير والحديث وفروعهما ، وعلوم البيان والبلاغة ، وعلوم الفقه والأصول ، وعلوم القرآن وأدائه ، وعلوم اللغة والنحو ، وعلوم الشعر والعروض – كل ذلك ما كان ليكون لولا نزول القرآن .

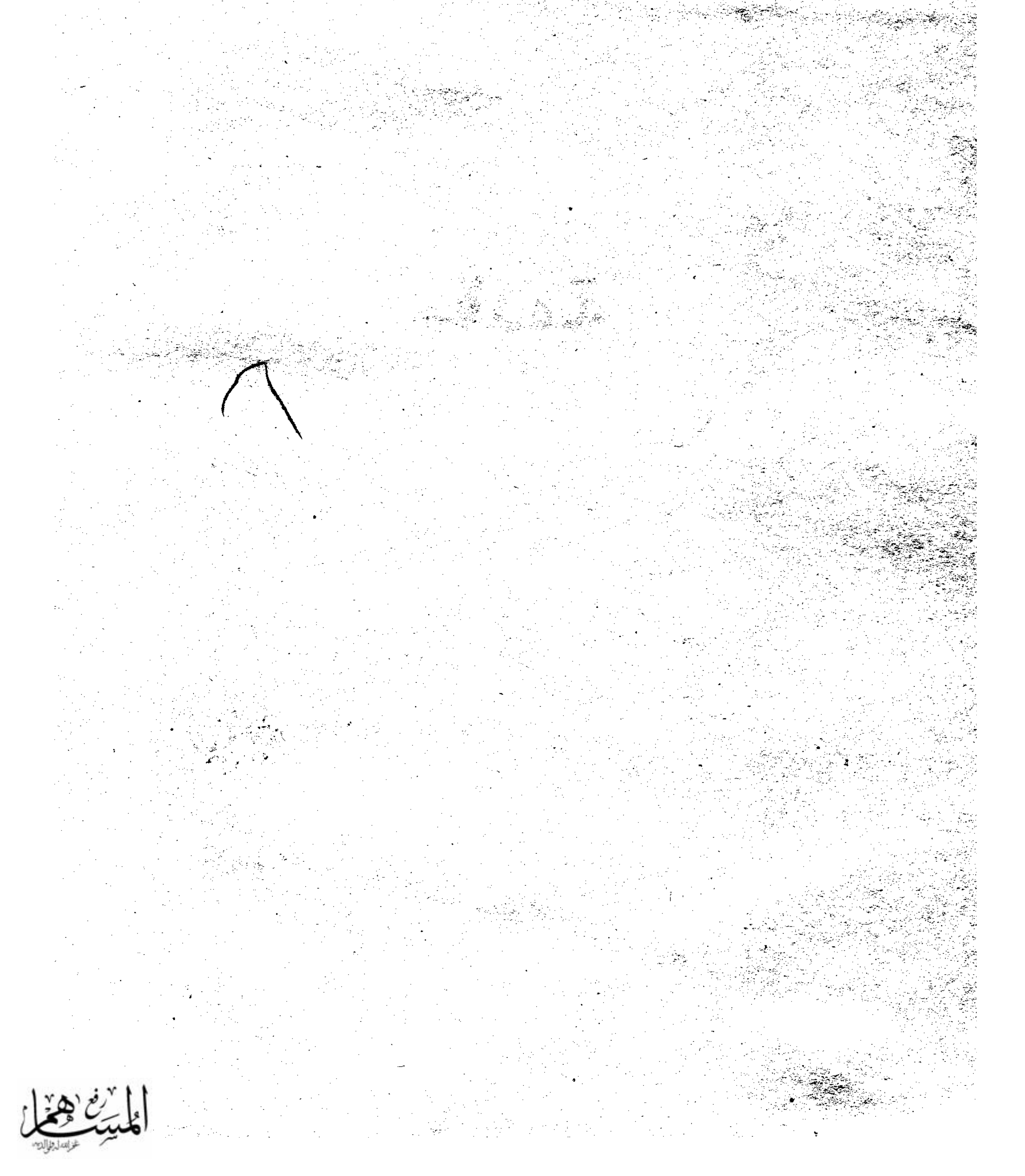
لقد خرجت أمة عظمى من قلب القرآن ، وتحرك التاريخ والحضارة بنزول القرآن ، وتقرر مصير الصراع الإنسانى على هذه الأرض ، وتحددت وجهته بتأثير القرآن ، بل لقد تقرر مصير العربية المشتركة أيضاً بهذا الكتاب المبين .

* * *

الفصل الرابع

أمية العرب





من حـديث رسـول الله ﷺ : « **إنا أمـة أميـة ، لا نكتب ولا نحسب** » ، وهو وصف لحال العرب الذين نقلت عنهم العربية ، فقد كانوا أميين .. لم يعرفوا فنون الكتابة ، والتسجيل أو التدوين كما عرفت الأمم المجاورة لهم فى ماضى الزمان .

كان المصريون ، وهم جيران الجزيرة العربية من الغرب قد عرفوا النقش على الحجر ، والكتابة على ورق البردى ، وقد سجلوا تاريخهم وأيامهم على جدران المعابد ، فحفظتها للأجيال ، وأدتها إلى زماننا أروع أداء ، بعد كشف طلاسمها على يد العالم الفرنسى شامبليون .. الذى كشف عن سر الهيروغليفية فى نصوص حجر رشيد .

ولولا تدوين تاريخ الحضارة المصرية ، وملوكها ، وحروبها وانتصاراتها ما عرف الإنسان شيئاً عن أهم فصول الحضارة الإنسانية .

وعن المصريين تلقى العبرانيون درس الكتابة ، وفنون التدوين والنقش مستخدمين الحجارة والجلود ، وأوراق البردى : الذى اخترعه المصريون .

يقول مؤلفو قاموس الكتاب المقدس : « كانت الحوادث تسجل فى الأزمنة القديمة على الحجر أو الخزف ، وربما اخترع المصريون ورق البردى (البابيروس) فى العصور السابقة للسلالات الملكية التى حكمت بلادهم ، ويظهر أن العبرانيين استعملوا الكتابة لأول مرة بعد خروجهم من مصر ، وأنهم تعلموا هذه الصناعة من المصريين الذين كانوا يتقنونها عصوراً طويلة قبل ذلك » (خروج ١٧ :١٤) .

ثم يقول : (وكان العبرانيون يحفرون الكلمات والحروف والأرقام على ألواح حجر ، ويطبعونها على لبن ، أو ينقرونها فى صفائح معدنية كالرصاص أو الحديد ، أو البرونز ، أو النحاس ، ويحفرونها فى ألواح خشبية ، وكانوا ينقرون الكتابات فى الصخور ، ويسكبون رصاصاً فى الحروف المحفورة بهذه الطريقة)[1] .

وبهذه الطريقة أبقى العبرانيون على الكتب المقدسة التى وضعوها ، أو دونوها ، فى عهود مختلفة ، بعد وفاة موسى عليه السلام ، وفى عهود داود وسليمان ، وسائر الأنبياء الذين تواتروا على مراحل التاريخ .

أما العرب فإنهم ـ كما يقال ـ كانوا محاصرين فى جزيرتهم .. لم يتصلوا بجيرانهم المصريين ، ولم يتأثروا بأبناء عمومتهم من العبرانيين ، فقد كانت تفصلهم عن مناطق التأثير الحضارى مساحات شاسعة من الرمال ، أو مساحات هائلة من الخوف من سيطرة الأجنبى على بلادهم .. الفرس فى الشرق ، والروم فى الشمال .

وهكذا عاش العرب فى شبه الجزيرة ، قانعين بما فيها من مراع ، وكانوا يتنقلون بين تلك المراعى يسيمون قطعان الماشية ، وكلهم حفاظ على كيانهم القبلى ، فكل قبيلة لها مقومات تستند إليها من كثرة العدد ، ونبوغ الشعراء ، وفتوة الفرسان ، وبقدر ما كانت القبيلة تملك من هذه المقومات كانت تبسط سلطانها على جيرانها ، وكلما زاد عدد شعرائها ارتفع صوتها بين سائر القبائل ، واتسع نفوذها ، وزادت احتمالات تصادمها بالقبائل الأخرى .

وهكذا عاش العرب حياتهم الصحراوية فى حروب متصلة ، وغارات دائمة .. مستخدمين من السلاح الشعرى ، والسلاح المادى ما أغرقهم فى تلك الصراعات التى تحكيها كتب السير والأخبار .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ٧٦٠ وما بعدها .

لم يلتفت العرب فى تقلبهم إلى ما حولهم من شعوب راقية ، وتجمعات متحضرة .. بل عكفوا على أشعارهم عكوفهم على أوثانهم ، وتحولت كل قدراتهم العقلية إلى تجويد لغتهم ، وترقية فنونهم القولية ، وكانوا يرون أن الشعر هو طريقهم إلى الخلود ، ووسيلتهم إلى السيادة .

أى : إنهم قنعوا بما حققوا من تفوق فى فنون الشعر ، ولم يلتفتوا إلى إضافة شىء من فنون الحضارات الأخرى ، ولا سيما صناعة الكتابة ، فنعموا فى قاع الأمية ، وظنوا أنهم بما تحقق لهم قد جمعوا المجد من أطرافه .

وغاب عن عقلاء العرب قديماً أن اعتمادهم على تناقل الشعر رواية على ألسنة الرواة يعرض هذا الشعر للكثير من الخلل والاضطراب ، والتغيير والتحريف ، كما يعرضه فى أحيان كثيرة للنسيان والضياع ، وهو ما حدث فعلاً ، وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

فالأمية العربية لم تقتصر جنايتها على وصم العرب بالجهل الكتابى .. بل امتد تأثيرها إلى تبديد تراثهم الشعرى ، وبعثرة كنوزهم القولية التى سجلت فيما نتصور أحداثهم وأيامهم ، ولكنها فى النهاية ـ إرادة الله لهذه الأمة العربية .

على أننا حين تتبعنا موضوع الكتابة عند العرب وجدنا أن قلة منهم لم تتجاوز عدد أصابع اليدين ـ كان أفرادها يعرفون الكتابة ، وقد تعلموها من أهل الحيرة والأنبار [١] ، ومع ذلك بقى الخط صناعة لا تتجاوز بضعة الأفراد الذين تعلموها دون أن تشيع فى البيئة العربية .

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أن « العرب كانوا يكتبون فى جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذى عرفه بعد ذلك المسلمون » [٢] .

---

(١) حياة اللغة العربية /٥١ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ـ الطبعة الأولى ـ ص٤٣ .

وهذا الرأى لا يعنى ضرورة شيوع الكتابة فى قبائل العرب ، فإن الحياة العربية لم تكن تساعد على نمو هذه الصناعة ، لانعدام الموضوع الذى يمكن أن تستخدم فيه الكتابة ، بعكس العبرانيين الذين واجهوا ضرورة التعامل مع الكتب المقدسة ، ووضعها ، وتأليفها ، وهو ما كان يعتبر صناعة شائعة فيما بينهم ، وبخاصة فى طبقة الأحبار والرهبان ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ [البقرة : ٧٨] .

أما العرب فلم يكن لديهم من مادة يكتبونها سوى قصائد بعض الشعراء ، وقد كان يغنى عن كتابتها فى ذلك الوقت حفظ الرواة ، ونقل الروايات إلى من يحفظون أيضاً ، وحين تأتى فرصة اللقاء بالأسواق والمواسم ، وعلى تباعد فرص ذلك اللقاء .

وقد عمل على تأكيد حالة الأمية عدم وجود صناعة لأدوات الكتابة كالأقلام والبردى والمداد ، وانقطاع الاتصال بين الجزيرة العربية ومراكز الحضارات المجاورة .

ومن هنا نجد أن القرآن يطلق على العرب صفة (الأميين) فى قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [الجمعة : ٢] .

والمقصود (بالأمية) هنا الجهل بالكتابة ـ فيما نرى ، لأن القراءة نشاط يختلف عن الكتابة ، وهو أمر كان بوسع (الأميين) ، فهم يقرأون الأشعار التى يحفظونها عن ظهر قلب ، ويرددونها على أسماع القبائل فى الأسواق والمنتديات ، ومع ذلك فهم (أميون) .

ومن هنا المورد يأتى تفسيرنا لمعنى (أمية) الرسول ﷺ ، فيما وصف به

فى القرآن : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، فهو (أمى) بمعنى أنه لا يعرف الكتابة ، فهو لا يمارسها بيده ، وهو لا ينطق الرموز المكتوبة ، ولكنه يعرف (القراءة) ، ومن هنا قال الله سبحانه لنبيه : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ [العنكبوت : ٤٨-٤٩] ، فهو ﷺ لم ينطق فى حياته رمزاً مكتوباً ، ولا خط هذا الرمز بيمينه ، وهذا هو معنى (الأمية) ، ولكنه كان يتلو من غير كتاب ، أى : مما يلقنه الوحى من آيات الله البينات التى استكنت فى صدره ، وفى صدور الذين أوتوا العلم من صحابته .

ومن هنا نفهم الحكمة فى بدء الوحى بالآيات الكريمة : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١-٥] .

فهو من أول لحظة لا ينفى عنه إمكانة القراءة ، وأى إنسان يستطيع أن يقرأ ما يحفظه ويلَقّنه دون تردد .. مهما كان جاهلاً بالكتابة ، وهو حال الأميين فى مجتمعاتنا حتى الآن .. يحفظون الفاتحة ، وبضع سور من القرآن .. يقيمون بها صلواتهم ، ويصححون عقائدهم ، وهم مع ذلك معدودون من الأميين .

وهكذا نفهم تركيز القرآن فى خطاب النبى ﷺ على القراءة أو التلاوة ، أو التبليغ ، أو الدعوة ، أو الصدع بما يؤمر به ، دون أن يطلب منه مرة أن يكتب ما أنزل إليه من ربه ، وأن يبلغه مكتوباً للناس ، فى حين أن مادة القراءة والإقراء والقرآن تكررت أكثر من ثمانين مرة .

ولعل الحكمة فى نزول القرآن منجماً - أن القدرة العقلية للمخاطبين بالنص لا تطيق استيعابه لو كان كثيراً ، فحسبهم أن يخاطبوا ببضع آيات يسهل عليهم حفظها ، وتمثلها فى سلوكياتهم ، حتى إذا هضموها تماماً ساعفهم الوحى بمثلها فى وجبة جديدة ، وهكذا تكامل الوحى فى عقول

النبي وصحابته ، وبصرف النظر عن أن النبي ﷺ كان موعوداً بأن لا ينسى شيئاً مما يوحى إليه في قوله سبحانه : ﴿ سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله ﴾ [الأعلى : ٦ـ٧] ، وقوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٨] ـ فهذه خصوصية كانت في قدر الله وسيلة لحفظ القرآن ، وتحقيق وعده في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] .

أما الصحابة فهم كسائر البشر ، ذوو قدرات محدودة ، ومتفاوتة ، ولابد من تكليفهم بحفظ ما ينزل من الوحي ، بحسب وسعهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وكان الحفظ في الصدور مصحوباً بالتدوين في السطور ، بعد أن توفر فيهم الكتبة القارئون ، حتى كان مَنْ أُحْصِيَ مِنَ كتّاب الوحي في المرحلة المدنية ثلاثة وأربعين كاتباً .

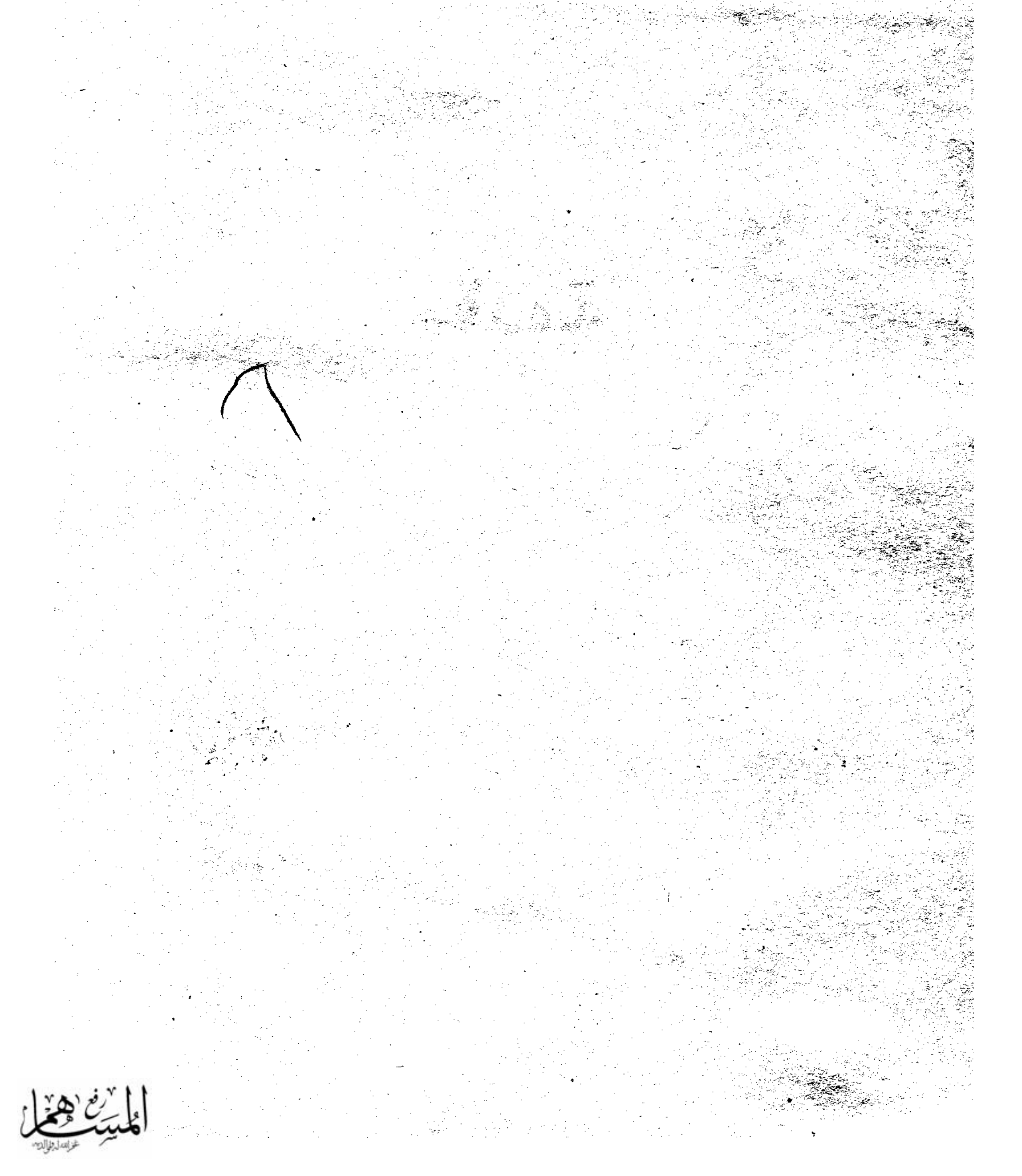
وخلاصة القول أن النبي الأمي أرسل إلى قوم أميين ، يبدأ فيهم رسالته ، ويبلغهم دعوة الله إليهم ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وقد كانت هذه هي الخطوة الحاسمة لنقل المجتمع من مرحلة الأمية إلى مستوى الحضارة ، تمهيداً لتعميم الرسالة على العالمين .

***

الفصل الخامس

فصحى ولهجات





لم تكن الحياة العربية فى صورتها الأولية تخرج عن التصور القبلى ، حيث كانت القبائل تعيش منعزلاً بعضها عن بعض ، معتزاً كل منها بتقاليده الاجتماعية واللغوية ، مفتخراً بما لديه من قدرة على البطش بمعارضيه .

وحياة العزلة ذات تأثير على كل عناصر المجتمع .. الإنسانية والمعنوية ، فالأطفال فى ذلك المجتمع ينشأون بعيدين عن رعاية الأب والأم المشغولين بالرعى وتربية الأغنام ، وجلب القوت اليومى ، والحى خال من الكبار .. ممتلىء بالصغار الذين يلعبون معاً ، ويمرحون ويغنون .. أعنى أنهم يمارسون نشاطهم اللغوى حراً طليقاً من كل قيد أو رقابة ، ولو فرض أن أحدهم كان منحرف النطق فى بعض الأصوات أو الصيغ ـ وهو ما كان واقعاً دائماً ـ فليس هناك من يقوِّم له لسانه ، أو يعينه على تدارك خطئه ، ومن هنا تتفشى الأخطاء وتتعاظم على ألسنة الجيل الناشىء الذى يمسك من بعد بقيادة المجتمع ، وهو الذى شب على بعض الانحرافات النطقية ، وإذا بهذه الانحرافات عن سنن النطق الجماعى تكتسب ثباتاً واستقراراً على الألسنة الشابة لتصبح من بعد صورة تطورية للغة ، بعد أن كانت فى بدايتها مجرد أخطاء أو انحرافات .

هكذا كانت حال اللهجات العربية فى نشأتها ، فقد انعزلت قبائلها بعضها عن بعض ، وأخذت اللغة تتطور نتيجة الأوضاع الاجتماعية غير المستقرة فى داخل هذه القبائل ، غير أن حياة القبائل لم تكن دائماً غير مستقرة ، إذ إن منها من توفرت له أسباب الاستقرار ، ومن الطبيعى أن تبطىء حركة تطور اللغة فى هذا الوسط عنها فى الوسط الآخر غير المستقر .

على أننا نغلو كثيراً .. بل نخطىء ، حين نتجاهل أحد المعالم الأساسية فى تكوين المجتمع العربى ، فهذا المجتمع شأنه شأن أغلب المجتمعات .. كان يضم مستويين من مستويات الحياة الاجتماعية .

المستوى الأول :

وتعيش فيه قبائل ذات حضارة وإمكانات مادية وأدبية كبيرة ، وهذه كانت تسكن المدن الكبرى مثل مكة ويثرب ، والحواضر اليمنية والشامية والعراقية التى كانت تجاور أو تخالط شعوب الفرس والروم ، وأهم ما يعنينا منها القبائل التى كانت تعيش فى شمال الجزيرة وفى غربها ، وهى قبائل : قريش وهذيل وثقيف والأوس والخزرج وغيرها .

والمستوى الثانى :

وتعيش فيه قبائل أكثر بداوة ، وأقل حضارة ، وهى كثيرة التنقل فى أرجاء الجزيرة بحثاً عن المرعى ، وعن الاستقرار ، وعن الأمن ، وقد كانت هذه القبائل متركزة فى شرق الجزيرة ووسطها ، ومن أشهرها : تميم وقيس وأسد .

وليس من الصواب أن نستهين بهذه القبائل فنتصور أن عددها قليل .. بل العكس هو الصحيح ، فتميم هذه كانت شعباً عظيماً ، عدداً ومكانة ، فى جزيرة العرب كلها ، وهى تعد الجناح الثانى للأمة التى عرفت بعد ذلك فى التاريخ باسم (الأمة العربية) ، حيث تعد قريش جناحها الأول .

وقبل مبعث النبى ﷺ أحس الناس فى أنحاء الجزيرة بمغزى الصلات التى تربطهم فيما بينهم ، والتى تضمن لهم حماية فعالة ضد أى مغير قد يطرأ من الأحباش أو من الفرس ، فنشطت هذه الصلات فى صورة تبادل تجارى وأدبى ، حيث كانت تقام فى الأسواق التجارية ندوات يعرض فيها شعراء القبائل الوافدة قصائدهم ، وينشدونها بين يدى النقاد والمحكِّمين ، وكان هؤلاء يحاولون

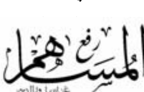
تثقيف ما يعرض عليهم من الأشعار ، وتوجيه الشعراء الوجهة الصائبة فيما يصوغون .. حدث هذا في أسواقٍ كانت أدبية في الواقع أكثر منها تجارية ، وذلك : كأسواق عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، وخيبر .

عن طريق هذه اللقاءات الأدبية تكونت للعرب لغة مشتركة ، وتقاليد فصحى ، هى خير ما جاءت به اللهجات المتفرقة ، فأضافته إلى لسان قريش ، التى كانت تسكن جوار البيت العتيق ، فمنحها هذا الجوار سلطة روحية وأدبية ، وإن لم يمنعها من أن تنتقى من ألسنة العرب ما وافق طباع ألسنتها ، وما أحست أنه صورة راقية من صور اللغة الفصحى .. يقول أبو الحسين أحمد بن فارس :

« أجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومجالسهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبى الرحمة محمداً ﷺ ، فجعل قريشاً قُطَّان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها ، وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم ، وتحكم بينهم .. ثم قال : وكانت قريش ، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب »[1] .

فاللغة العربية المشتركة إذن ليست هى لغة قريش أو لهجتها ، فهذه كان شأنها شأن لهجات العرب ، وإن تكن أرقاها ، وأعظمها حضارة ، وإنما كانت العربية المشتركة مزيجاً من تقاليد اللهجات ، وهى التقاليد الراقية غير المسفة ، إلى جانب غلبة الطابع القرشى فى هذا الاختيار .

(١) الصاحبى / ٢٣ .



وليس وجود اللغة المشتركة بمانع العربى أن يتكلم بلهجته الخاصة ، فقد كان يلجأ إلى اللغة المشتركة ، حين يقف موقفاً يتطلب منه الحديث إلى خليط من أبناء القبائل المختلفة فى ناد أدبى ، أو محفل للتقاضى ، أو سوق للتجارة ، وبعبارة مختصرة : فى المجال الجِدّى الذى يقتضى منه قولاً جاداً .

أما حين يعود إلى موطنه فإنه يعود إلى ما جرى به لسانه من تقاليد لهجته المحلية ، يتعامل بها مع مواطنيه .. جِدّاً وهزلاً .

وقد كان توحد اللهجات العربية فى المستوى الأدبى فى صورة اللغة المشتركة مقدمة لا بد منها لنزول القرآن بتلك اللغة المختارة الصافية ، فلم نجد فى عبارة القرآن الكريم أثراً من آثار اللهجات الكثيرة ، وإنما كانت عبارته دائماً خالصة من الأوشاب اللهجية ، تماماً كما كان الشعر فى العصر الجاهلى خالصاً من الأوشاب اللهجية ، مترفعاً عن ظواهرها المسفة أحياناً ، لقد كان الشعر ديوان العربِ جميعاً على اختلاف قبائلهم وأنسابهم وثقافاتهم ، وكان القرآن من بعدُ كتابَ العرب جميعاً على اختلاف قبائلهم وأنسابهم ، بل كان أكثر من ذلك كتاب الإنسانية كلها ، أحمرها وأبيضها وأسودها ، فلابد أن تكون صورته الأدبية غاية فى النقاء ، قمة فى السمو البيانى ، وهو ما وسم القرآن من أول آياته إلى آخرها ، حتى أقرت الأجيال الأولى والأخرى بتفوقه ، وكان من شرائط الإيمان أن نسلم بإعجاز القرآن ، ولسوف نبين فى فصل تال أثر القرآن فى العربية على نحو مفصّل إن شاء الله .

***

أشهر اللهجات العربية القديمة وعناصرها :

يجدر بنا بعد هذا البحث فى تاريخ اللغة العربية ، وتاريخ اللغة المشتركة الفصحى ، وعلاقتها باللهجات القبلية ـ أن نقدم إلمامة سريعة عن اللهجات العربية القديمة ، وأشهر هذه اللهجات ، وما تتميز به كل لهجة إجمالاً عن غيرها .

والواقع أن اللهجات ـ فى أية لغة ـ لا يفصل بينها وبين اللغة المشتركة سوى بعض الصفات الصوتية ، فاللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة ، وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل ، تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات ، وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات هى التى اصطلح على تسميتها (باللغة) ، أو (اللسان) ، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص [1] .

وقد سبق أن ذكرنا فى كتاب سابق أن اللغات المختلفة المنتمية إلى فصيلة واحدة ، يتميز بعضها عن بعض فى جوانب كثيرة ، ولكنها تتقارب فى أمور هى فى الواقع مجموعة العناصر القديمة التى نزيدها هنا تأكيداً :

١ـ الضمائر .

---

(١) فى اللهجات العربية ص ١٦٠ .

٢ـ الأعداد .

٣ـ أسماء الإشارة والموصول .

٤ـ الاشتراك فى معظم نسبة كبيرة من الكلمات ذات الدلالات القديمة ، كالأرض والسماء ، وألقاب الأسرة كالأب والأم والأخ والابن .

٥ـ أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ـ الاشتراك العام فى كيفية تركيب الجمل [١] .

وقد اتضح ذلك مما سقناه عن تقارب أسماء العدد بين الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وهى لغات مختلفة تنتمى إلى الفصيلة اللاتينية ، إحدى فصائل اللغات الهندية ـ الأوربية ، والأمر لا يختلف كثيراً عن ذلك فى مجال اللغات السامية (العربية والعبرية والسريانية) مثلاً .

أما اللهجات فإن علاقتها باللغة المشتركة أقرب من ذلك ، وينحصر جوهر الفرق بين بعضها وبعض فى مجموعة من الصفات الصوتية ذات الصيغة المحلية :

١ـ اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ـ اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ـ اختلاف فى مقياس بعض أصوات اللين .

٤ـ تباين النغمة الموسيقية فى الكلام .

٥ـ اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض [٢] .

---

(١) فى اللهجات العربية ص ١٧ .

(٢) السابق .

والناظر فى تاريخ اللغة العربية يجد أسماء قبائل كثيرة تتردد فى جوانب هذا التاريخ ، ولكن يبرز منها دائماً عدة قبائل هى : قريش ، وتميم ، وأسد ، وهذيل ، وعقيل ، وطيىء ، وغيرها .

وإنما اشتهرت هذه القبائل دون سواها لما تميزت به لهجاتها من عناصر صوتية فرقت بينها وبين اللغة المشتركة ، وهى عناصر كانت ملتزمة فى البيئات القبلية ، بين أفراد القبيلة الواحدة ، فإذا ما تغيرت البيئة ، ووقف العربى موقفاً يخاطب فيه أفراداً آخرين لجأ إلى اللغة المشتركة ، يلتزم ظواهرها ، ويتمثل صفاتها .

ومن المؤسف بالنسبة إلى تاريخ اللغة العربية أن عناصر هذا التاريخ لم تحفظ مدونة بكل تفصيلاتها ، وإنما امتدت يد التجاهل والنسيان إلى هذه العناصر ، وبخاصة ما يتصل باللهجات العربية ، فلم ترو لنا آدابها الشعبية ، ولا حفظت لنا نصوص نرجع إليها فى تجلية معالم هذا التاريخ ، وهذه هى الصفة الغالبة على كل جوانب تاريخ العربية ، إبان نشأتها ، فيما قبل العصر الجاهلى ، وزاد الإهمال للهجات حين اهتم الناس باللغة المشتركة ، وأثبتوا بها نصوصهم ، وسجلوا فى مستواها الأدبى أشعارهم ، فاستنكفوا أن يهتموا بأمر اللهجات على خطورته ، وكان أن رويت لنا أخبار متناثرة عنها ، لا يمكن أن تصنع تاريخاً ، أو تصوغ فكرة متكاملة .

فقد رويت لنا مثلاً عن لهجة تميم عدة أخبار ذات أهمية ، وتميم فى التاريخ اللغوى رمز للبيئات البدوية بعامة ، فى مقابل البيئات الحضرية التى تمثلها قريش وأهل الحجاز .

فمما روى لنا أن تميماً كانت تنطق بعض الفتحات فى لسان قريش ممالة إلى الكسرة ، وهو ما عرف فى الدراسات اللغوية ، قديماً وحديثاً باسم (ظاهرة الإمالة) ، وروى أيضاً عن هذه القبيلة أنها كانت تدغم بعض الأصوات فى

بعض ، إذا كان الصوتان المدغمان متقاربين ، أو متجانسين ، أو متماثلين ، واتصلا اتصالاً مباشراً ، فحيث كانت قريش وأهل الحجاز ينطقون الأصوات واضحة متأنية ، كانت القبيلة تسرع في أداء مقاطع كلامها ، فيدخل بعض الأصوات في بعض ، ومن أمثلة ذلك : أفتخذتم ، بالذال والتاء .. ينطقها بعضهم : أفتختُّم ، وقد تمثلت هذه الظاهرة بمختلف أشكالها في قراءة أبي عمرو بن العلاء ، وهي إحدى القراءات السبع ، فيما سمي (الإدغام) الصغير ، والكبير ، وقد درسناها كاملة في رسالتنا للماجستير ، في أحد فصولها .

ونسبت كتب اللغة إلى قبيلة تميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها (العنعنة) ، وهي قلب الهمزة المفتوحة المبدوء بها عيناً ، ورووا لذلك قول بعضهم : (أشهد عنّك رسول الله) يريد : (أشهد أنك رسول الله) ، فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة .

ونسبت كتب اللغة إلى قبيلة هذيل ظاهرة (الفحفحة) ، وهي قلب الحاء عيناً ، فيقولون مثلاً : (اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض) ، يريدون : (اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض) ، ويقال : إن قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : (عتى حين) في قوله تعالى : (حتى حين) ـ من آثار اللهجة الهذلية في قراءة القرآن ، وقد نهاه عمر بن الخطاب عن ذلك ، آمراً إياه أن يقرىء الناس بلسان قريش الذي أنزل به القرآن .

وينسبون إلى لهجات اليمن قلب السين تاء ، فيقولون : (النات) في كلمة (الناس) ، و (الأكيات) في لهجتهم هم (الأكياس) في لساننا ، كما ينسبون إليهم النطق بما يشبه الجيم القاهرية ، في مقابل الجيم المعطشة التي توصف بأنها الفصحى .

وينسبون إلى قريش أنها لم تكن تعرف (الهمزة) في كلامها ، وأن الهمزة كانت من الأصوات التي يحرص عليها البدو دون الحضر .

ولا ريب أن هذه الظواهر تثير أمامنا مشكلات كثيرة ، تحتاج إلى مناقشات واسعة ، غير أن المقام لا يتسع لهذا ، وفى تلك العجالة التى نحرص عليها ، وبحسبنا أن نعلم أن ظاهرة واحدة هى (الهمز) قد أفردت بالدراسة فى رسالتنا للدكتوراه ، وكذلك ظاهرة (الإمالة) التى ينبغى أن تدرس دراسة علمية تحليلية دقيقة ، لا تكتفى بالجانب التاريخى فى المشكلة ، على المنهج الذى ترسّمه الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شلبى فى رسالته للماجستير .

وقد استطاع الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه (فى اللهجات العربية) أن يفسر أحداثاً لهجية كثيرة ، مما روى فى كتب اللغة والأدب ، وخرج من بحثه بتحديد الخطوط العامة التى تميز لهجات البدو عن لهجات الحضر ، وهو أمر يقوم فى كثير من مواضعه على المقارنات الصوتية ، كما يعتمد على نتائج الدراسات الاجتماعية فى العصر الحديث .

والنتيجة التى توصل إليها الدكتور أنيس تفيدنا أيضاً فى دراسة اللهجات الحديثة ، وهى كثيرة جداً ، فى داخل الوطن ، وخارجه ، وتعتبر دراسة هذه اللهجات الحديثة مقدمة ضرورية لأى جهد يراد به التقريب بين أبناء الوطن العربى .

ومن العسير - مع مانرى من التمزق الراهن بين اللهجات العربية الحديثة أن تصنع محاولات السياسة إطاراً يضم هذه الأشلاء والمذاهب المتنافرة ، فأبسط ما يفرق بينها هو انفصال الحدود السياسية ، وأخطر ما يمزق شملها هو هذا التنوع اللهجى ، الذى ينبغى أن تتعاون الجهود للقضاء عليه ، وإرساء حجر الأساس فى بناء الوحدة اللغوية ، طريق الوحدة الشاملة .

ولعل ما يؤخذ على الكليات والمعاهد العلمية التى تدرس اللغة العربية أنها تقدم اللغة على أنها مادة دراسية ، يمتحن الطلبة فى آخر العام فى قواعد المادة ، حتى مع جهلهم باللغة نطقاً وممارسة .

وهكذا ينبغي أن تُعلَّم اللغة ، وإذا كانت معرفة قواعد النحو ضرورية ، فإن التدريب على النطق وممارسة اللغة أهم وأكثر ضرورة لتعلمها .

ومن المؤسف أن تلقى دروس النحو واللغة فى بعض المحاضرات باللهجة العامية ، مما يعتبر ازدراء للفصحى ، واغتيالاً لحياتها .

هذا على حين أن أقسام تدريس اللغات الأوروبية تفرض على الدارسين من الطلاب أن يتقنوا الحديث بتلك اللغات .

إن من الضرورى أن تفرض كليات اللغة العربية وأقسامها فى كليات الآداب ، كما يلزم أن تفرض كلية دار العلوم على جميع الأساتذة فى كل المواد الدراسية أن تكون لغة المحاضرة هى اللغة الفصحى لا غير .

بل ينبغى أن يفرض ذلك على كل الطلاب والطالبات ، ابتداء من الصف الأول ، حتى تصبح اللغة الفصحى سليقة لهم ، فإذا ما ذهب هؤلاء الخريجون للعمل فى حقل التدريس لزمهم أن يستخدموا الفصحى أمام الأطفال والشباب فى مراحل التعليم المختلفة ، وبذلك تتغير صورة العلاقة بين المجتمع والكلام الفصيح ، وحينئذ تختفى من وسائل الإعلام نغمة السخرية و (التريقة) على الفصحى ومعلميها .

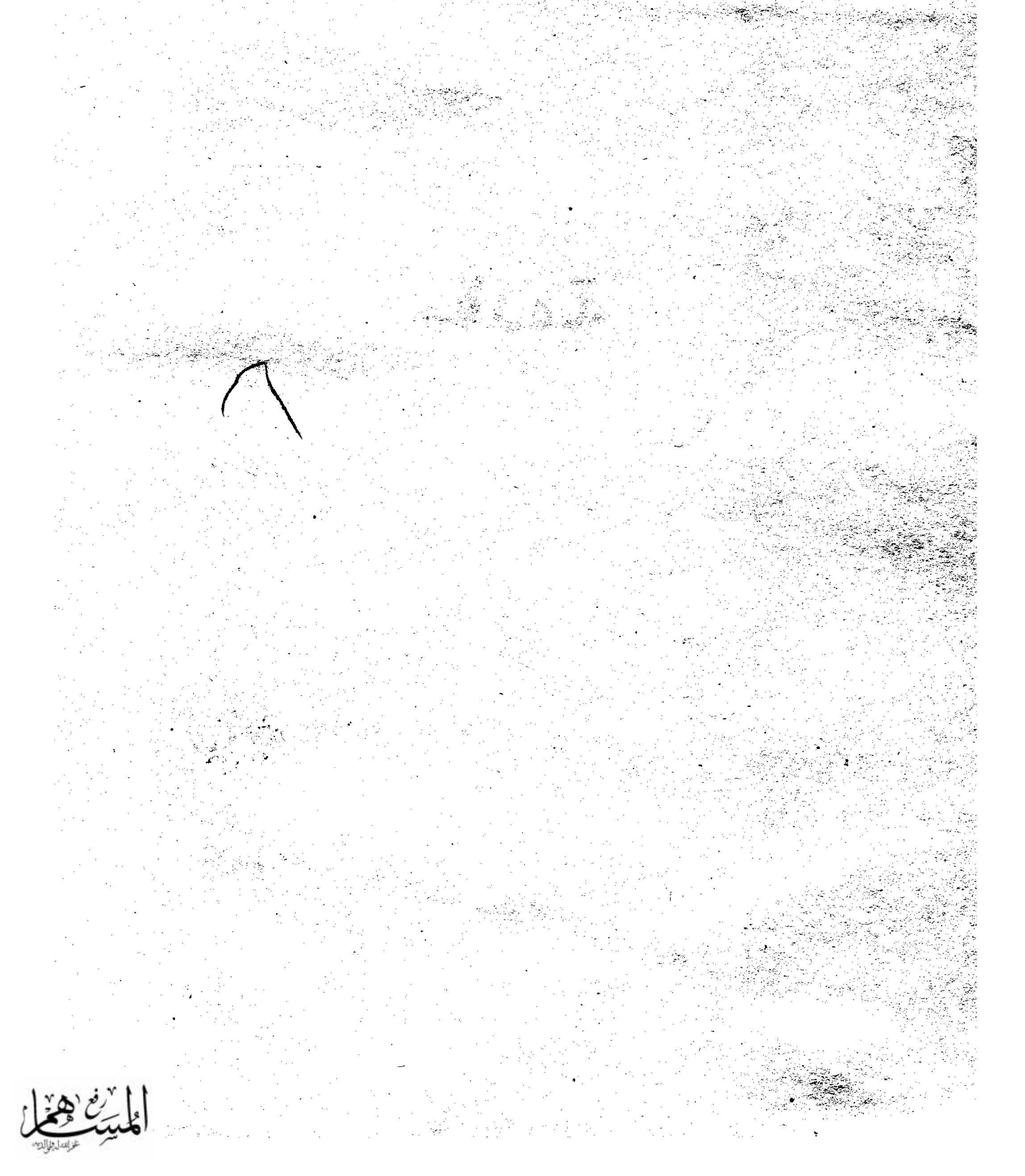
أجل لابد من خطوة ثورية فى هذا الاتجاه ، وإلا فلا فائدة ولا أمل فى تحسين وضع اللغة الفصحى .

***

الفصل السادس

مقياس الصواب والخطأ فى اللغة





يتضح من دراسة تاريخ اللغة العربية أنها قد مرت فيما قبل الإسلام بمرحلتين :

المرحلة الأولى :

مرحلة التمزق القبلي ، حين كانت مجرد لهجات ، يتمسك أصحابها بتقاليدها ويعتزون .

المرحلة الثانية :

مرحلة التوحيد اللغوى ، وذلك حين ساد الجزيرة العربية نفوذ القبيلة الكبرى (قريش) ، وهم الذين كانوا سدنة البيت الحرام ، وكانوا إلى جانب ذلك أوسط العرب مقاماً ، وأعلاهم نسباً ، وأرقاهم لساناً ، فأخذوا يختارون من ألسنة القبائل الوافدة إلى الحج وإلى الأسواق الموسمية ـ ما رقّ من الألفاظ والتراكيب ، فتقوّت بذلك لغتهم ، على حساب اللهجات الأخرى ، التي بقيت فى وضعها لا تتطور ، وكان أن أصبحت اللهجة القرشية لساناً مشتركاً بين جميع القبائل ، إلى جانب لهجاتها الخاصة ، كما مر بيانه .

وقد مضى قولنا : إن اللغة كائن اجتماعى ، يتأثر بالأحداث والظواهر الاجتماعية ، ويؤثر فيها أيضاً ، فاللغة بهذا المفهوم ملك للمجتمع ، تنعكس فى حالتها صورته .

وفي ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نقول : إن الصواب اللغوى مرتبط أشد الارتباط بالصورة التي يرتضيها المجتمع للغته ، وإن الخطأ اللغوى هو نقيض هذه

الصورة ، لأن المجتمع هو الذى يملك اللغة ، وليست اللغة هى التى تحكم المجتمع .

وقد مرت اللغة العربية فى تطورها القديم بمرحلة اللغة الاجتماعية ، حين كانت تخضع لظروف المجتمع العربى فى الجاهلية ، وقد كان الأدباء والشعراء من سائر القبائل يلتزمون قوانين الفصحى المشتركة ، لا ينحرفون عنها أبداً ، فإذا عادوا إلى مواطنهم القبلية استعملوا لهجتهم الخاصة ، وكان العربى فى كلتا الحالين مهتماً بالمستوى الصوابى ، الذى ارتضاه مجتمعه الخاص للهجته ، وذلك الذى ارتضاه المجتمع العام للغته المشتركة ، فإذا بدرت من أحدهم بادرة انحراف تكفل المجتمع ـ والنقاد فيه كثيرون ـ بتقويم المخطىء ـ سواء بالتوجيه الفردى ، أو بحكم ما استقر فى حس المجتمع من استنكار لموقف الخارجين عن تقاليده الفصحى .

لم يكن المجتمع يعرف للغته العربية آنذاك قواعد محددة ، ولكنه كان يضبطها بالإحساس بوجود القانون اللغوى ، صوتياً كان أو اشتقاقياً ، أو تركيبياً أو دلالياً ، والذوق الحاكم الناقد خير ألف مرة من قواعد شديدة التعقيد .. عسيرة التحليل والتركيب ، وقد كان هذا الذوق العربى آنذاك يفصل بين ما هو لهجى وما هو من تقاليد اللغة المشتركة، حتى لو ناقض كلاهما الآخر ، فلكل مقام مستوى من اللغة ، ومن أمثلة ذلك ما روته لنا كتب النحو واللغة من شواهد تخالف فى صورتها ما تفرضه قواعد النحو العربى ، ومنها أبيات لشعراء جاهليين ، ومع ذلك حفظت ، ورويت لنا كما هى ، ومنها قول أبى النجم العجلى ، وهو من بنى عجل من بكر وائل :

واهاً لريا ثم واهاً واها   هى المنى لو أننا نلناها
ياليت عيناها لنا وفاها   بثمن نرضى به أباها
إن أباها وأبا أباها   قد بلغا فى المجد غايتاها

وفى هذه الأبيات نجد أبا النجم يلزم المثنى الألف فى حالة النصب ، مع أن القاعدة النحوية تنصبه بالياء ، ونجده أيضاً يلزم الأسماء الخمسة الألف فى حالة الجر ، مع أن القاعدة أن تجر بالياء (وأبا أبيها) ، ومع ذلك رويت لنا الأبيات ، تماماً كما رويت لنا الأبيات التى استقام فيها إعراب الأسماء الخمسة حسب القاعدة المعروفة ، بالواو رفعاً ، وبالألف نصباً ، وبالياء جراً ، ومعلوم أن الواو والألف والياء في هذه الحالات ليست سوى تكبير للحركات المصغرة التى هى الضمة والفتحة والكسرة ، ومن هذا النوع أيضاً قول الشاعر :

رأين الغوانى الشّيبَ لاح بعارضى　　　فأعرضن عنى بالخدود النواضر

حيث ذكر الشاعر نون النسوة بعد الفعل (رأى) ، مع وجود الفاعل (الغوانى) وهو أمر تؤوله أو تمنعه القواعد النحوية .. إلى شواهد أخرى كثيرة حفلت بها كتب اللغة والأدب .

مثل هذا الشعر لم يكن يلقى معارضة قطعاً من جانب نقاد الجاهلية ، ومن المؤكد أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه وارد على سنن اللهجات ، ولكل لهجة قوانينها ونظمها ، كما أننا الآن ننظر إلى الأشعار التى تكتب بلهجات ريفية ـ نظرة تسليم ، فمن حق هذه الأشعار أن تعيش إلى جانب أشعار اللغة الفصحي ، وليس بوسع أحد أن يصادرها بدعوى الانتصار للفصحى ، أو بدعوى أنها خارجة على سننها ، فإن للعاميات قواعدها الخاصة بها ، رغم أنها غير مكتوبة .

فلما جاء علم تدوين اللغة ، وأخذ علماء العربية يضعون قواعدها ـ صرفية ونحوية ـ اتجه هؤلاء العلماء إلى القبائل القرشية وجيرانها ، فأخذوا عنها لغاتها ، ورفضوا ما عداها ، واعتبروا ما خرج عن قواعدها شذوذاً وخطأً لا يجوز اعتماده أو الأخذ به ، فكأنهم حاولوا بعملهم هذا فرض مجموعة من القواعد الخاصة ببعض اللهجات على لهجات أخرى ، فى حين كانت هذه اللهجات جميعاً تتعايش من قبل فى سلام ووئام .

ومن هنا نشأت فكرة الصواب والخطأ في اللغة ، وهي الفكرة التي كانت مرتبطة بقواعد النحو الموضوعة ، فكل ما وافق القواعد النحوية عُدَّ صواباً ، وكل ما خالفها عُدَّ لحناً .

وقد حدثت إبان ذلك العصر المتقدم حوادث بين النحاة والشعراء ، ظهر فيها إصرار الشعراء على تمثيل ما تعلموه من طبائع اللغة وتقاليدها في أشعارهم ، وميل النحاة إلى تقييدهم بالقواعد ، واعتبار ما خرج عنها لحناً يحاسبون عليه ، ومن ذلك أن الفرزدق قال مرة شعراً يخاطب به عبد الملك بن مروان ، ويشكو له النوائب التي لم تدع له شيئاً يغني به .. قال :

وعضُّ زمان يا ابن مروان لم يَدَعْ من المال إلا مُسحتاً أو مجلف

ونظر النحوي عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فوجد أن الفرزدق خالف القواعد النحوية التي تفرض نصب المعطوف على منصوب : (مسحتا أو مجلفا) فسأل الفرزدق :

ـ علام رفعتَ (مجلفُ) ؟

فقال الفرزدق : على ما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا .

وفي هذه العبارة نجد التحدي السافر بين النحوي الملتزم بقواعده ، والشاعر المعتز بأبياته ، وما ضمنها من لحات حكّم فيها تفوقه اللغوي .

ويتطور الزمن بعد ذلك بالناس ، ليأتي نحاة آخرون ، في القرن الرابع الهجري ، ليعتبروا أن كل ما جاء عن اللهجات صواب ، وهو حجة ينبغي أن تعتمد في تقعيد القواعد النحوية ؛ مهما خالفت نهج الفصحى ، وفي مقدمة

هؤلاء : أبو الفتح عثمان بن جنى : الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، مؤلف كتب (الخصائص ، وسر الصناعة ، والمحتسب وغيرها) ، وقد عقد أيضاً فى كتابه (الخصائص) فصلاً بعنوان : (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) .

وبعد أن كان النحاة المتقدمون يرفضون الاستشهاد بشعر معاصريهم من شعراء صدر الإسلام ، ولا يحتجون إلا بشعر الجاهليين ، والمخضرمين (وهم الشعراء الذين عاشوا طرفاً فى الجاهلية ، وطرفاً فى الإسلام) ، وفى مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء ، الذى حدّث عنه الأصمعى فقال : (لازمت أبا عمرو بن العلاء عشر حجج فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامى) - بعد ذلك وجدنا النحاة المتأخرين يستشهدون بشعر معاصريهم ، كالمتنبى ، وأبى تمام ، والبحترى ، فضلاً عن المتقدمين كالفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والحطيئة ... بل لقد وجدنا من المحدثين من يجيز الاحتجاج بشعر الشعراء المعاصرين أمثال : شوقى وحافظ .

فإذا كانت اللغة ملكاً للمجتمع فإن من الواجب اعتبار كل عطاء لغوى لهذا المجتمع ، فى أى صورة كان ، شعراً أو نثراً ، مادام أصحابه قد عرفوا بحب لغتهم ، والحفاظ عليها ، وبذلك يتسع باب القياس اللغوى ليشمل كل كتابنا المحدثين ، من أمثال المازنى ، وطه حسين ، والعقاد ، والرافعى ، ولكل من هؤلاء عطاؤه اللغوى القيم ، الذى يثرى اللغة الفصحى بالكثير من الظواهر التركيبية ، نتيجة اطلاعهم على الآداب الغربية ، وتمثلهم لتراكيبها ، ولعل من الأمثلة الجديرة بالذكر فى هذا المقام ما لاحظه الدكتور إبراهيم أنيس فى قول شوقى متحدثاً عن الطيران :

ياسلاح العصر بُشّرنا به ... كل عصر بكمىٍّ وسلاح
إن عزا لم يظلّل فى غد ... بجناحيك ذليل مستباح

فإذا كانت الأداة (لم) تفيد قلب زمان الفعل المضارع إلى الماضى ، فكيف يمكن أن يقول الشاعر : (لم يظلل فى غد) .. ؟ .. ومع ذلك فقد يكون هذا استعمالاً مبتكراً للأداة (لم) فى ذوق شوقى، ينبغى أن يوضع موضع التحليل والفحص ، للحكم على صلاحيته وإمكان اعتباره نموذجاً من نماذج الفصحى المتجددة ، قائماً على استحضار صورة الغد ، واعتبارها ذات وقائع ماضية بالقياس إلى زمنها الخاص .

وهكذا تتطور مقاييس الصواب والخطأ ، بمرور الزمن ، واستمرار محاولات التجديد فى القواعد والمقاييس .

والأساس الذى يمكن أن نبنى عليه فكرتنا عن مقاييس الصواب والخطأ فى اللغة ذو مستويين :

المستوى الأول :

وهو المستوى الذى تفرضه القواعد النحوية الصارمة ، وهو مستوى (الصواب النحوى) .

والمستوى الثانى :

وهو المستوى المتصل باللغة ، من حيث هى كائن متحرك ، دائر فى المجتمع ، متأثر به ، مؤثر فيه ، متطور بتطوره ، وهذه كلها ظروف تفرض على مقاييسنا قدراً من المرونة يساير مقتضيات التطور ، وما يحدثه اتصال اللغة باللغات الأخرى من تبادل فى التراكيب ، وتطور فى الأصوات ، وفى المفردات ، وفى الدلالات ، وهو تطور يندفع المجتمع فى تياره ، بفعل عوامل معقدة شديدة التعقيد ، ولا بد للغة أن تتسع لكل احتمال قد يؤثر فى مبناها ، لتكون أداة معبرة عن توقعات عصر جديد .

هذا المستوى هو (مستوى الصواب اللغوى) ، وهو لا يناقض (الصواب النحوى) ، ولكنه قد يتوسع فى تطبيق قاعدة ، وفى إهمال أخرى ، مستعيضاً عنها بما يوافق هواه الاجتماعى ، وقد تكون مراعاة الصواب النحوى بمثابة اللجام الذى يكبح جماح الانطلاق الذى يستهدف التخلص من التقاليد اللغوية العريقة .

وقد رأينا أن مسألة الصواب والخطأ لا تقتصر على الجانب النحوى ، أو الإعرابى ، فهذا جزء صغير من كيان شامخ تتقلب اللغة على نواحيه ، ومن المسلم به أن أصعب جوانب اللغة وأعصاها على التطور جانب القواعد ، لكن هناك جوانب أخرى أعظم قابلية للتطور .. هى جوانب المفردات والدلالات والتراكيب والقوالب الأدبية وغيرها .

ومن الواضح تماماً أن العربية قد طرأ على معجمها وعلى أساليبها تطور كبير ، وبخاصة فى هذا العصر الصناعى ، الذى أمات مجموعة ألفاظ كانت قبلُ مستعملة ، دائرة على كل لسان ، مثل : الناقة ، والربع ، والفسطاط ، والقبيلة ، والفخذ ، والبطن ، والعشيرة ، (وهذه الألفاظ الأربعة الأخيرة تدل على تقسيمات قبلية) ، كما ماتت مجموعات الألفاظ الهائلة الدالة على أنواع السيف والأسد والثعبان والعسل وغيرها ، وقد روى لكل من هذه مئات الأسماء ، حفلت بها كتب اللغة ، وألفت فيها مصنفات كثيرة مروية فى التراث ، وحل محل هذه الألفاظ مجموعات أخرى ذات أهمية صناعية ، أو علمية أو اجتماعية ، وهى إما مشتقة من أصل قديم ، أو مولدة بإحدى طرق توليد الألفاظ ، كالنحت أو الارتجال أو مقترضة معربة ، وهى ألفاظ لم يعرفها العربى القديم ، الذى أثرنا عنه لغتنا الفصحى ، وأغلب الظن أنه لو بعث أحد هؤلاء الفصحاء ثم استمع إلى نطقنا للغة الفصحى ، لما فهم شيئاً ، بسبب اختلاف طريقة نطقنا ، واختلاف نهجنا فى تركيب جملنا ، واحتشاد

مجموعات من الألفاظ الغريبة ، التي لم تطرق سمعه ، ولم يتحرك بها لسانه ، كما تصيبه الدهشة من حركة الحياة حوله ، وهي حركة تسيطر عليها الكهرباء ، التي لم يرها ، ولم يعرفها لفظاً ولا مضموناً ، أي : إن قاموس اللغة قد تطور وتغير .

على أن هناك قضية أخرى متصلة بعلاج مشكلة الصواب والخطأ في اللغة ، فقد عالجنا حتى الآن جانب اللغة الفصحى قديماً وحديثاً ، في تناول الفرد لها ، وفي علاج العلماء لظواهرها .

بيد أن الفرد لا يتحدث الآن بالفصحى ، فهي لغة كتابة ، ولغة فكر ، أما لغة الحديث فتختلف من عامية إلى أخرى ، باختلاف بقاع الوطن العربي .

وقد جرت العاميات أيضاً على مجموعة من القواعد والتقاليد ، التي يلتزمها المجتمع واستعمالاته ، ومن أمثلة ذلك حالات النفي ، والاستفهام ، والنهي ، والتمني ، والأدوات المختلفة ، واستعمال الفعل .. ماضياً أو مضارعاً أو أمراً .. إلخ ..

وقد كسبت هذه التقاليد قوة الشيء المفروض ، بحكم المجتمع ، وبتقادم الاستعمال اللغوي على ألسنة الناطقين بالعامية ، فأي خروج على هذه التقاليد هو في عرف أصحابها لحن ، يواجهه أفراد المجتمع بالاستنكار حيناً ، وبالسخرية حيناً آخر ، وبالنصح والإرشاد أحياناً .. بل إن التزام هذه التقاليد هو في عرف المجتمع الأمارة الوحيدة على انتماء المتكلم إليه ، وولائه للسانه ، واستعمال تقاليد أخرى يعني في نظر المجتمع أن المتكلم أجنبي عنه ، منتمٍ إلى مجتمع آخر .

واستمع مثلاً إلى سوداني ينفي الفعل (أعرف) ، فيقول : (ما بعرف) ، لتشعر بالفرق بين نفيه ونفي المصري : (معرفش) ، واستعمال أحدهما لطريقة النفي المستعملة عند الآخر يعد في نظر مجتمعه خروجاً على

تقاليد لهجته ، ولحناً فى تركيب صيغها ، وهو موقف لا يقبل إلا من الأجنبى عن اللهجة ، دون مواطنها .

فها نحن أولاء فى موقف يفرض فيه المجتمع مقياس الصواب والخطأ فى اللغة ، ويرسم الحدود التى لا ينبغى تجاوزها للفرد المتكلم ، وهى حدود ذات طبيعة اجتماعية ، أى : أنها تتطور بتطور المجتمع ، الذى يستقبل جهازه اللغوى كل يوم مزيداً من الألفاظ والتراكيب الواردة ، وهى تسهم بمرور الزمن فى تطوير اللسان بإثرائه بصيغ ومفردات ونظم جديدة .

ولا ريب أن تطور وسائل النشر والإعلام فى الوطن العربى سوف يفرض على العاميات المختلفة فى الأوطان العربية قدراً لغوياً واحداً ، فى المستقبل القريب أو البعيد ، أى : إن هذه العاميات سوف تتقارب وتتفاعل ، لتتخلق من بينها لغة منطوقة مشتركة ، يستخدمها الناطقون من المحيط إلى الخليج ، وهى لغة أقرب إلى طبيعة الفصحى ، منها إلى أية عامية من العاميات الحديثة ، لأن الحركة الثقافية فى الوطن العربى متجهة بكل طاقتها إلى دعم الاتجاه الوحدوى بين المواطنين فى كافة أرجاء الوطن العربى ، وليس كاللغة الفصحى وسيلة لتوحيد القلوب ، من طريق توحيد الألسنة ، ويومئذ سوف يعد الخروج على سنن اللغة الجديدة انحرافاً عن الصواب اللغوى المستحدث ، وهكذا .

ومن ذلك كله يتضح أن مسألة الصواب والخطأ فى اللغة تخضع للنسبية ، فالصواب صواب بالنسبة إلى ظروف معينة تمر بها اللغة اجتماعياً وتاريخياً ، وبالنسبة إلى النموذج الذى يقاس إليه ، ومستوى هذا النموذج ، سواء أكان من اللغة الأدبية ، أم من لغة التأليف والكتب ، وبالنسبة إلى مستوى اللغة ذاتها ، فصحى كانت أو عامية ، وهكذا تتحكم النسبية فى المشكلة التى شغلت جانباً كبيراً من مناقشات العلماء والأدباء ، خلال القرون .

ومع ذلك لا ينبغى أن نغفل الإشارة إلى النشاط الإعلامى المكثف الذى



يركب الفضائيات ، ويحرص أصحابه على تسويق العامية اللبنانية ، بكل انحرافاتها اللهجية ، وغرائبها النطقية ، وهو نشاط يقترن دائماً بالمغريات التى تتمثل فى البهْر الفنى ، والعرى النسائى ، وكأن العامية التى يستخدمونها هى قضيتهم الأولى ، وهدفهم الإعلامى الفريد الذى يفشونه فى الناس .

ومع ما نلاحظ من سماجة نطق كلمات مثل : السآفة (الثقافة) ، وأفرئيا (افريقيا) ، والمسيئة (الموسيقا) ، فإن جاذبية النسوان على الشاشة تشد المشاهدين إلى تقليدهن فى السماجة تظرفاً وتفكهاً ...

وذلك إلى جانب ما تلقاه العربية من تشويه على ألسنة ممثلى الكوميديا ومتظرفيها ..

كل ذلك يمثل تياراً مضاداً للفصحى ، يدفعه أعداؤها إلى أقصى مدى ممكن ، ويرون أن تحطيم هذا الجدار القرآنى لا يمكن أن يتم إلا عن طريق نشر العاميات ، وتعميم الاهتمام بها إلى أقصى مدى .

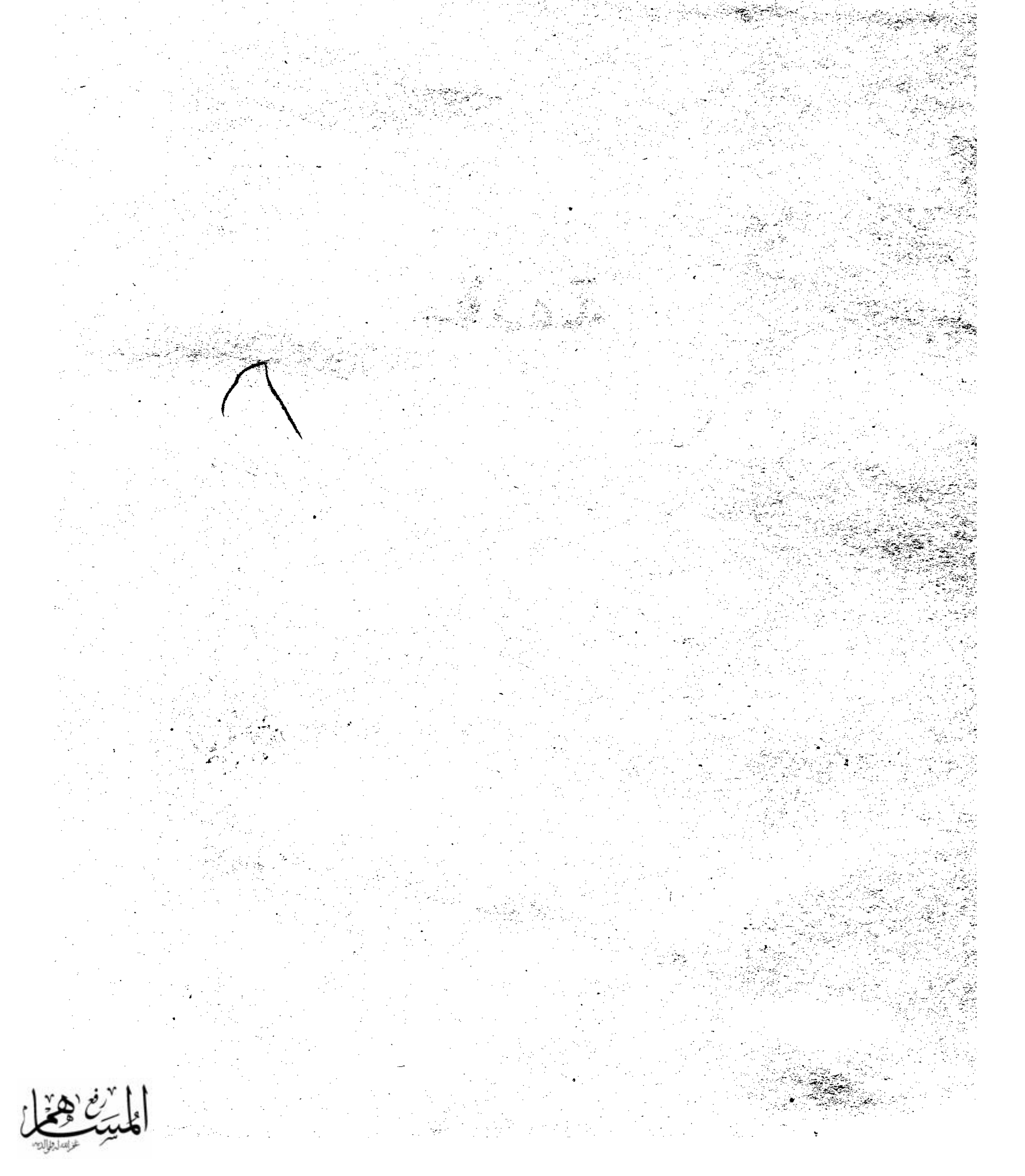
والأمل الكبير فى أجيال اللغة العربية ، وحفظة القرآن من الشباب ، لتفرض العربية القرآنية قدرها ، وتؤكد وجودها رغم أنف جيوش العلمانيين العملاء .

* * *

الفصل السابع

القرآن والعربية





كانت اللغة العربية بين أبناء إسماعيل ، وفوق أرض الدعوة هى لغة الوحى والقرآن المنزل بخاتم الرسالات على خاتم أنبياء الله محمد النبى العربى الأمى صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد كان بلوغ اللغة العربية هذه الدرجة من الكمال الذى أعدها لنزول القرآن بها حدثاً جليلاً تميزت به عربية القرآن فى ألسنة قريش ، على أخواتها فى الفصيلة السامية ، وهى العبرية التى كتبت بها التوراة ، والآرامية التى كتبت بها الأناجيل ، فبقى القرآن بكمال لسانه ، وآية بيانه ، على حين أصاب التحريف ما نزل من كلام الله فى التوراة والإنجيل .

لقد شاء الله أن يكون القرآن الكريم هو آيته الكبرى ، الباقية أبد الدهر ، بما جمع من كمال بيانه ، وحجة الله به ، وحكمة الشرع فيه ، وما اشتمل عليه من أخبار الغيب ، ونظم الحياة ، وقصص الرسل ، وبقائه على الزمن محفوظاً بلسان عربى مبين ، هداية لكل عصر ، وذكرى للمتقين ، ورحمة للعالمين .

والمهم أن ندرك أن الله سبحانه لم يرد أن يكون لنبيه الخاتم آية حسية مؤقتة ، بل أرادها آية عقلية دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، آية تملك أن توقظ غفلات البشر على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ، ومستوياتهم ، فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معاً لكل اللغات ، وكل البشر .

وإنى لأحب أن أؤكد هنا أن القرآن هو الآية الكبرى والوحيدة التى آتاها الله نبيه محمداً ﷺ ، وكل ما عداها من معجزات مؤقتة هو من تكريم الله

للرسول ، ولسوف يظل القرآن هو الآية البيانية الصوتية ، والكونية والعقلية التى جعلها الله دستور هذه الأمة منذ كانت ، إلى أن ينتهى هذا الخلق الأرضى ، فهى ولا شك أمة القرآن .. صنعتها آياته وتعاليمه ، وارتبط وجودها بوجوده محفوظاً بعناية الله العليم الخبير .

وأما عن سور القرآن الكريم ، فإن من المعلوم أن القرآن يضم بين دفتيه (١١٤) سورة .. فيها (٦٢٣٦) آية ، وقد اقتضى نزول هذا القدر من كلام الله ثلاثاً وعشرين سنة ، هى عمر دعوة النبى ﷺ بوحى الله بين قومه ، قضى منها ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشرة أعوام فى المدينة ، وكان الوحى يتنزل عليه كلما دعت إليه حاجة من تشريع ، أو استخلاص درس ، أو بيان حكم ، أو تعاليم ، إلى أن اكتمل على هذا النحو البالغ الكمال ، والله سبحانه يقول فى حكمة نزول القرآن منجماً :

﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبِّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

فإذا نظرنا إلى هذا القدر المنزل من الآيات تبينا أنه أكبر قدر من كلام الله نزل به وحى ، ولم تكن التوراة بهذا الحجم ، ولا كان الإنجيل .

ثم إن هذا الكم القرآنى قد ارتبط بالعربية ارتباطاً وثيقاً ، يتجلى به كماله اللغوى ، على حين أن التوراة والإنجيل كانتا بلهجتين من لهجات الفصيلة السامية هما : العبرانية والآرامية ، ولعلهما كانتا بالنسبة إلى العربية كشأن لهجاتنا العامية فى الأقطار العربية المختلفة فى هذا العصر بمنزلة واحدة .

إن القرآن كما سبق لم ينزل جملة واحدة ، بل منجماً على تتابع السنوات الثلاث والعشرين ، وحجم كهذا .. يتم نزوله فى زمن كهذا .. يتوقع أن يختلف أوله عن آخره ، وأن ينقض بعضه بعضاً ، وهذا ما لم يحدث فى القرآن ، فقد جاء كما وصفه الذى أوحى به :

﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود : ١] .

وهو تكامل وإحكام لا يمكن أن يتحققا فى أعمال البشر ، فقد يستغرق تأليف كتاب من عمر كاتبه سنة أو سنتين ، فنجده يعدّل فى نهاية المدة ما كان قد أثبته فى أولها ، وهو أمر مألوف جداً فى ممارسات البشر ، أما القرآن ـ ذلك الكتاب الكامل الوافر ـ فقد ظل طوال السنوات يتكامل بآياته آية آية ، دون أدنى تناقض أو اختلاف ، وذلك آية على أنه بدأ منذ الكلمة الأولى من الوحى يرسل أحكامه وكماله ، بعد أن نظمته قدرة الله الذى ﴿ **علم القرآن** ﴾ ، وفى هذا يقول الله وهو يتحدى علم العرب بلسانهم ، وقد نزل القرآن بما فاق قدرة البشر على الكمال :

﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ [النساء : ٨٢] .

مضمون القرآن واقتداره التعبيرى :

أما مضمون القرآن فهو ما لا نستطيع الإحاطة به فى هذه العجالة ، إلا إشارة مجملة إلى تنوع هذا المضمون ما بين الدنيا والآخرة ، فهو فى أمر الدنيا لايترك صغيرة ولا كبيرة يلزم التشريع لها ، إلا وقد لمسها إجمالاً وتفصيلاً ، هداية للناس فى مسيرتهم اليومية ، وهكذا نجد فيه التشريع ، والدعوة إلى التزامه ، وقصص الذين تمسكوا بشرائع الله ، أو الذين أهملوا شريعة الله من السابقين ، وأهم القضايا التى ركز عليها القرآن قضية (الوحدانية) ، ولا عجب فى ذلك ، فإن دعوة النبى ﷺ لم تكن إلا إلى التوجه لله وحده بالتوحيد الخالص .

﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ [الإخلاص : ١ـ٤] .

ولذلك يجب أن نقرر هنا أن القرآن لم يتعرض لقضية (وجود الله) ،

لأنه لم يكن هناك واقع فى حياة العرب من أبناء إسماعيل وحول بيت الله ينفى هذا الوجود ، وكانت دعوة القرآن والإسلام منصبّة على نفى الشركاء لله الحق ، الذى تعلم قريش والعرب أنه الله الحق ، ولكنهم تعلقوا فى غفلاتهم بالشركاء زعماً بقولهم :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : ٣] .

بل إننا نستطيع أن نزعم أن الإنسان ، مهما بلغ من الانحراف لا يخرج عن تصور قوة مسيطرة على الحياة والوجود ، فالإنسان (مؤله) منذ كان ، وإلى آخر الزمان ، غاية ما هنالك أن من يدعون أنفسهم (بالملحدين) يختلفون عن أصحاب الأديان فى وصف القوة المسيطرة على الكون ، فيرى أصحاب الإيمان أن هذه السيطرة إلهية ، ويرى أصحاب الإلحاد أنها سيطرة طبيعية أو مصادفة ، أو يكون الإله هو المادة أو الإنسان ، أو هو المجتمع إلى آخر هذه التصورات السقيمة التى لم تنف وجود المسيطر .. بل مسخت صورته بالعجز عن إدراكه فى أذهان العاجزين المنحرفين ، ومع ذلك فقد أكدت لزوم وجود القوة المسيطرة فى صورها الباطلة ، والتى لا يشير أحدها قط إلى الله الحق كما دعا إليه الرسل ، ونادت به الكتب المنزلة .

ولقد يتحدث القرآن فى سبيل إثبات هذه الوحدانية الخالصة لله عن الكون ، وما يضم من أجرام وأبعاد وقوانين حاكمة للمادة ، فإذا به يقدم الحقيقة المطلقة فى أوجز عبارة ، وأعظمها كشفاً عن الحقائق والسنن .

وحسبنا أن نسوق فى هذا الصدد إشارة القرآن إلى نظرية امتداد الكون ، تلك الفكرة التى اهتدى إليها علماء الفلك ، عندما لاحظوا تغير المسافات المرصودة بيننا وبين بعض الكواكب السديمية دائماً بسرعة تفوق سرعة الضوء ، ومعنى ذلك بالأسلوب العلمى أن مساحة الكون تتغير باستمرار ، إلى زيادة مطردة هائلة دائمة .. هذه الحقيقة الكونية الرائعة لم يتح إدراكها للعلماء إلا بعد

اكتشاف الأبعاد الكونية بمناظير مقربة إلكترونية ، وبعد أن غزا الإنسان الفضاء ، للتأكد من تقديرات العلماء على الأرض ، وما كان معقولاً أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل هذا القرن العشرين .

فأما خالق الإنسان ، فقد أخبر بها من قبل أربعة عشر قرناً فى آية من سورة الذاريات .. هى قوله تعالى :

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

فتعبير القرآن يفيد أن السماء تم بناؤها ، ولكن توسيع هذه السماء أمر مستمر مطرد ، وهو حديث عن عالم غير مدرك آنذاك بأية حاسة أو قدرة عقلية ، ولكنه إخبار الخالق الذى علم القرآن بالحقيقة التى اتجه العلم إلى إدراكها بعد أربعة عشر قرناً .

وربما اتصل بهذا الموضوع عن السماء والكون حديث القرآن عن الآخرة ، وعن موجوداتها الكونية ، كالجنة والنار ، وهى أكوان لا يمكن تصورها إلا من خلال صورة العظمة الإلهية المتجلية فى خلق الكون المنظور فى هذا الخلق المغيب ، وهو استدلال لا بد أن يعقبه تسليم وإيمان بقدرة الخالق ، وبحقيقة عالم الغيب ، ذلك الموجود الثابت فى آيات القرآن :

﴿ وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف : ٨٥ـ٨٧] .

إن حقيقة هذا الكون كما عبر عنها القرآن وكما فسرها العلماء ، تجلّ عن التصور ، وتدعو إلى الإيمان بالقرآن ، والإذعان بلا تردد ولا مراء .

وقد نتساءل هنا :

هل القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية ؟ أم أن اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن ؟ فإذا شئنا إجابة علمية عن هذا السؤال فلن تكون الإجابة ـ مع لزومها ـ أصدق تعبيراً من قول الله فى القرآن :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] .

ومعنى هذا أن حفظ القرآن ليس مهمة بشر ، ولا هو يتحقق بوسيلة من وسائل البشر ، بل هى مهمة الله وحده .. ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ .

لقد قلنا : إن إرادة الله فى سننه شاءت أن تجعل العربية لغة الوحى المنزل ، فهل أفادت العربية من هذا التنزيل ، أو من هذا الاستخدام الإلهى فى التعبير عن رسالة الوحى ؟

إن هذا السؤال يبدو ساذجاً ، ولكنه مفتاح إلى حقائق كثيرة من الضرورى الإلمام بها .

ولسوف نتصور الآن الوضع فى الجزيرة العربية قبل نزول القرآن ، وهذه الجزيرة كانت مهداً للناطقين بهذه اللغة ، وكانت محاطة من كل جانب بوجود لغوى هائل من الفرس فى فارس والعراق ، ومن الروم فى الشام ، ومن الأحباش فى الجنوب ، ومن الأنباط العرب فى مصر ، وهذه الشعوب كانت حتى ذلك الحين مساوقة للحضارة الإنسانية على قدر ما بلغت من مستوى .

والعرب فى ذلك الحين كان وجودهم قبائلياً ، يتمثل فى تجمعات بدوية حول الماء والمراعى ، باستثناء مركزين فى مكة ويثرب ، يتميزان بوجود بعض النشاط التجارى ، فيما عبّر عنه القرآن برحلة الشتاء والصيف ، وكان العرب أمة مُفتنّة فى بيانها ، ولا سيما ما كانت تنشده من أشعار ، وكان أكثر اعتمادها فى

الحفاظ على نتاج العقول هو استخدام الحافظة أو الذاكرة فى رواية القصص والأمثال والأشعا ر ، وكان الشعر بنظمه وإيقاعه أكثر تداولاً بين القبائل ، فيتناشده الكبار والصغار ، وما استجادوه منه بقي بالحفظ والرواية ، والتسجيل الخطى حتى وصل إلينا .

وفى هذه الظروف لا يتصور أحد أن يتخلق مجتمع حضارى فى الجزيرة العربية ، ووضع كهذا لا يتصور أن يؤول إلا إلى الانقراض الاجتماعى واللغوى ، وهو فى أفضل توقعاته قد ينتهى إلى حركة هجرة من نوع الهجرات التى سبقت فى تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ .

وهذا التاريخ يحدثنا أن جزيرة العرب شهدت هجرات دورية كانت تحدث كل ألف عام تقريباً من داخل الجزيرة إلى خارجها ، وقد كانت أولى الهجرات التى سجلها التاريخ إلى العراق حوالى عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد حيث خرجت قبيلة كلدة (شيخ عربى مؤسس لدولة الكلدان) وقد كانت طليعة النبط والآراميين ، الذين نزحوا من شمال بلاد العرب فنزلت العراق مخيمة على ضفاف الفرات ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية ، من فصيلة اللغات السامية التى هى أسرة العربية فى الواقع .

وجاءت الموجة الثانية عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد ، حيث عادت بلاد العرب فغصت بأبنائها بعد ألف سنة ، فكانت الهجرة الآمورية الكنعانية ، إلى شمال جزيرة العرب ، حيث نزلت شعبة منهم ساحل البحر الأبيض المتوسط على حين انتشرت شعبة أخرى فى سوريا ، وكانوا يتكلمون الكنعانية ، إحدى اللغات السامية المنتشرة فى الجماعات التى نزلت الساحل الشرقى للبحر الأبيض ، وكانت الشعبة الأخرى التى دخلت سوريا تتكلم بالآرامية .

وحدثت الموجة الثالثة عام ١٦٠٠ قبل الميلاد فى اتجاه العراق ، وكان من

نتائجها استيلاء العرب على زمام الحكم فى مملكة كلدة ، وتأسيسهم الدولة الكلدية الخامسة التى من ملوكها (حمورابى) المشهور .

وفى عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت الموجة الرابعة ، هى هجرة موجة من أبناء إسماعيل فى اتجاه الشام واليمن .

ثم كانت موجتان عربيتان زمن ميلاد عيسى عليه السلام نتيجة الحروب القبلية الطاحنة ، فقصيلة تنزل العراق ، وأخرى تنزل فلسطين ، وثالثة إلى الشام ، ورابعة تتجه إلى مصر .

والملاحظ على هذه الموجات كلها أنها كانت تحدث نتيجة ازدحام قلب الجزيرة بالسكان ، مع عجز مواردها عند الجفاف عن ضمان استمرار الحياة لمن فيها من البشر ، فإذا بظاهرة الهجرة تحدث بصورة دورية كل ألف عام تقريباً .

والملاحظة الثانية : أن هذه الموجات كانت تأخذ شكل زحوف بشرية فى اتجاه الخصب على أحد الأنهار الموجودة بالمنطقة ، وهى دجلة والفرات فى العراق ، وبردى فى الشام ، والنيل فى مصر .

والملاحظة الثالثة : أنها لم تقترن أو تستتبع قيام دولة ، أو نشأة حضارة قوية فى مراكز الهجرة فى العراق أو فى الشام ، بل إنها اقتصرت على إعادة التوزيع السكانى على سطح الجزيرة العربية ، وما حولها مع خلق تجمعات قبلية عربية يمكن أن تؤثر فى الأحداث المقبلة .

غير أن هناك ملاحظة حول الدورية التى كانت تحدث فيها الهجرات ، فقد كانت على مدى ثلاثين قرناً تحدث كل ألف عام ، ولكنها بعد ذلك كانت تحدث كل ستة قرون تقريباً (عام ٦٠٠ قبل الميلاد) ثم (إبان ميلاد المسيح) ، ثم (بعد المسيح بسبعة قرون) عندما بعث النبى ﷺ ثلاث هجرات فى حوالى ١٣٠٠ عام ، وخرج العرب المسلمون آخرها فى موجة دينية لتحرير الوطن العربى الكبير من الشرك ، ورفع لواء الوحدانية الخالصة .

وهذه الهجرات المتتالية توحي بأن توقعات الحياة فى الجزيرة العربية ما كانت لتكون أكثر من تحرك الجموع المتكاثفة فى اتجاه الجنوب ، أو فى اتجاه الشمال ، التماساً للرخاء أو سعياً إلى الأمان .

أما أكثر من ذلك فلا قرينة تعين على تصوره ، لأن المادة التى تصنع منها الحضارة لم تكن متوفرة فى داخل الجزيرة العربية ، ما عدا الإنسان .

وهذا الإنسان هو الذى استهدفته فى موعده دعوة الإسلام ، تحقيقاً لدعاء إبراهيم وإسماعيل عند بيت الله ، ليؤلف الله بعد عداوات الجاهلية بين قلوب القبائل العربية ، ليخرجوا بهذا الدين الحق على الناس ، حاملين الحرية والإيمان والأمن إلى جميع أرض العرب تحت راية القرآن مبشرين ، بالمجتمع الإنسانى الجديد ، الذى لا فضل فيه لأحد إلا بالتقوى .

ولقد كان أفضل ما يميز هذا الإنسان العربى فى جزيرته أنه كان إنساناً فطرياً لم تستهلكه أساطير موضوعة ، ولا حضارات قاهرة ، لقد كان إنساناً يملك إرادته ، وبقية دين إبراهيم ، مع فطرته السليمة ، ولغته الكاملة ، وبيانه النافذ ، وقابلياته التى زوده الله بها ليزكيه بالكتاب ، وليكمل له الدين ، وليتم عليه النعمة بالإسلام .

كانت لغته هى شغله الشاغل فهو يعكف عليها فى مواسم الحج متفنناً فى تصريف القول بها ، وانتقاء ألفاظها ، وصقل أشعارها وحفظ نصوصها ، فلقد كان يدرك أن عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه فى لغته العربية التى انتسب إليها فصار بها عربياً ، أى : مبيناً ، وصار من حوله رغم حضاراتهم « عجماً » غير مبينين !

ولقد ضمنت هذه الظروف للغة العربية نقاء من الشوائب ، وبعداً عن التأثير اللغوى الأجنبى ، بحيث لم يكن يتسلل إليها من اللغات الخارجة عنها إلا

الألفاظ المعبرة عن منتجات الحضارة التي تنتقل إليها بأسمائها ، كالإستبرق والسندس والزنجبيل ، وغيرها من الألفاظ الأعجمية التي تنتمي إلى غير العربية .

وهكذا نزل القرآن واللغة العربية شغل العربي الشاغل في صحوه ، وحلمه في منامه ، وقد بلغ افتتانه بها ، وافتنانه في بيانها مستوى من النضج لم تبلغه أية لهجة من اللهجات السامية التي هي من أخوات العربية ، كالعبرية والآرامية والسريانية والكنعانية والكلدانية .. إلخ ، لأن عكوف العربي على إبداع بيانه بالعربية بلغ درجة تقرب من التقديس للغة ، وأتاح لها بذلك فرصة نضج فني متقدم يتميز بالأصالة وبالنقاء ، فاستحقت أن تكون وعاء لوحي الله وكلامه الحكيم .

ومن ثمّ كانت المعجزة القرآنية : أن هذه اللغة التي عكف عليها العرب ، لتجويدها ، وامتلاك ناصية المعاني الإنسانية والواقعية بها ، قد تنزلت من عند الله بكلامه لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغه إدراكهم ، وما تتدبره عقولهم ، في مستوى لا تبلغه قدرتهم على المحاكاة ، ومع ذلك فإن الألفاظ واحدة ، والأدوات واحدة ، وأشكال التصريف واحدة ، أي إن المادة اللغوية هي هي ، ومعاني الألفاظ هي هي تقريباً ، ولكن تشكيل الألفاظ والمعاني والتراكيب والإيقاع ، في الوحي الإلهي - هو الآية العظمى ، فوق كل منال .

فكيف أطاقت العربية أن تتسع بحروفها وكلماتها لهذا التنزيل الإلهي بالقرآن العظيم ، دون أن تضيق عنه ، أو تعيا بحمله ، فكأنما هو بيان يتفجر من قلبها ؟ تلك صنعة الخالق :

﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ [الرحمن : ١ - ٤] .

ولقد كان نزول القرآن بالعربية حدثاً فريداً في تاريخ الدين والإنسان ، ذلك





لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الإسلام ـ حققت من الناحية التاريخية استمرار العلاقة بينه وبين بيان العربية ، بحيث يظل هذا البيان قرآنياً ، يفسر القرآن ، ويحيا بالقرآن .

وكان من الممكن لو لم ينزل القرآن أن يتغير بيان العربية بمرور الزمن ، وتتابع الأجيال ، ثم تبدأ اللهجات العربية ـ التى كانت متعددة بتعدد القبائل ـ تستقل ، لتصبح من جيل إلى جيل لغات مستقلة ، لا علاقة بينها ، إلا ما يكون من علاقة بين لغات الفصيلة الواحدة ، كما حدث للهجات الساميين التى أصبحت لغات مستقلة ، أى : إن نزول القرآن قد كفل مجموعة من النتائج فى وجود اللغة العربية :

أولها : أن العرب جميعاً تشبثوا باللغة الفصحى ، لأنها لغة الوحى والعقيدة .

وثانيها : أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد ، مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية .

ثالثها : أن مرور الزمن ، وتتابع الأجيال لم يكن له تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى إلا مزيداً من تفاعلها مع القرآن ، بحيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن .

رابعها : أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين فى أنحاء العالم ، فهم يقرأون القرآن بالعربية ، ويتعبدون بحروفه ،ويتخذون طريقة كتابته وسيلة لتسجيل لغاتهم ،وهذا فى حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية ، على مستوى عالمى .

خامسها : وهذا هو الأهم ـ كانت آية القرآن اللغوية إعلاناً عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة ، والتعبير عنها مهما

يكن مستواها ، لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ ، لا بد أن تكون أقدر على التعبير عن أى مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور .

ولعل من خير ما يساق فى هذا الصدد عن علاقة القرآن بالعربية ما جاء فى كتاب (تحت راية القرآن) للمغفور له مصطفى صادق الرافعى ، قال :

« والقرآن الكريم ليس كتاباً يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب ، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده وإن كانت وثيقة ، ولأتى عليه الزمان ، أو بالحرِىّ ، لنُقِّص من أمره شىء كثير عن الأمم ، ولاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غال ومبطل ، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذراً للعوام والمستعجمين فى إحالته إلى أوضاعهم ، إذا ثابت لهم قدرة على ذلك ، ولو فعلوه لما كان بدعاً من الرأى ، ولا مستنكراً فى قياس أصحابنا ، لأنهم لم يعدوا منفعة طلبوها من سبيلها ، وخطة انتهجوها بدليلها » .

« وليس يقول هذا إلا ظنين قد انطوى صدره على غل ، واجتمع قلبه على دخلة مكروهة ، وإلا جاهل من طراز أولئك ، لا يستطيل نظره بتجربة ، ولا ينفذ بعلم ، وإنما هو آخذ بذنب الرأى لا بوجهه ، ولكن يتوجه معه ، ولا يقبِل به ، ولكن يدبر به الرأى » .

« إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً ، حتى يتأذن الله بانقراض الخلق ، وطى هذا البسيط ، ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس ، وردهم إليها ، وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامى ، ولتراخت به الأيام إلى ما شاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية ، ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ، ونضب ما بينهم ، فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب ، وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية ،

لا السياسية ، فلا تتبين من آثارهم فى أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء ، إذا انساب الجدول فى المحيط »[1] .

ولعل معنى هذا الحديث من الرافعى يؤدى بنا إلى تصور تأثير القرآن فى هذه الأمة العربية ، حين ألف الله به بين قلوب أبنائها ، وهو يذهب عنها عيبة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، ثم وهو يمحو ثاراتها القبلية ويخلصها من الشرك ، ليحييها بالإيمان ، وليزكيها ويطهرها بالكتاب والحكمة ، وقد اجتباها الله لذلك ، وأعدها لساناً وخلقاً وقابلية ، كما جاء فى قوله تعالى :

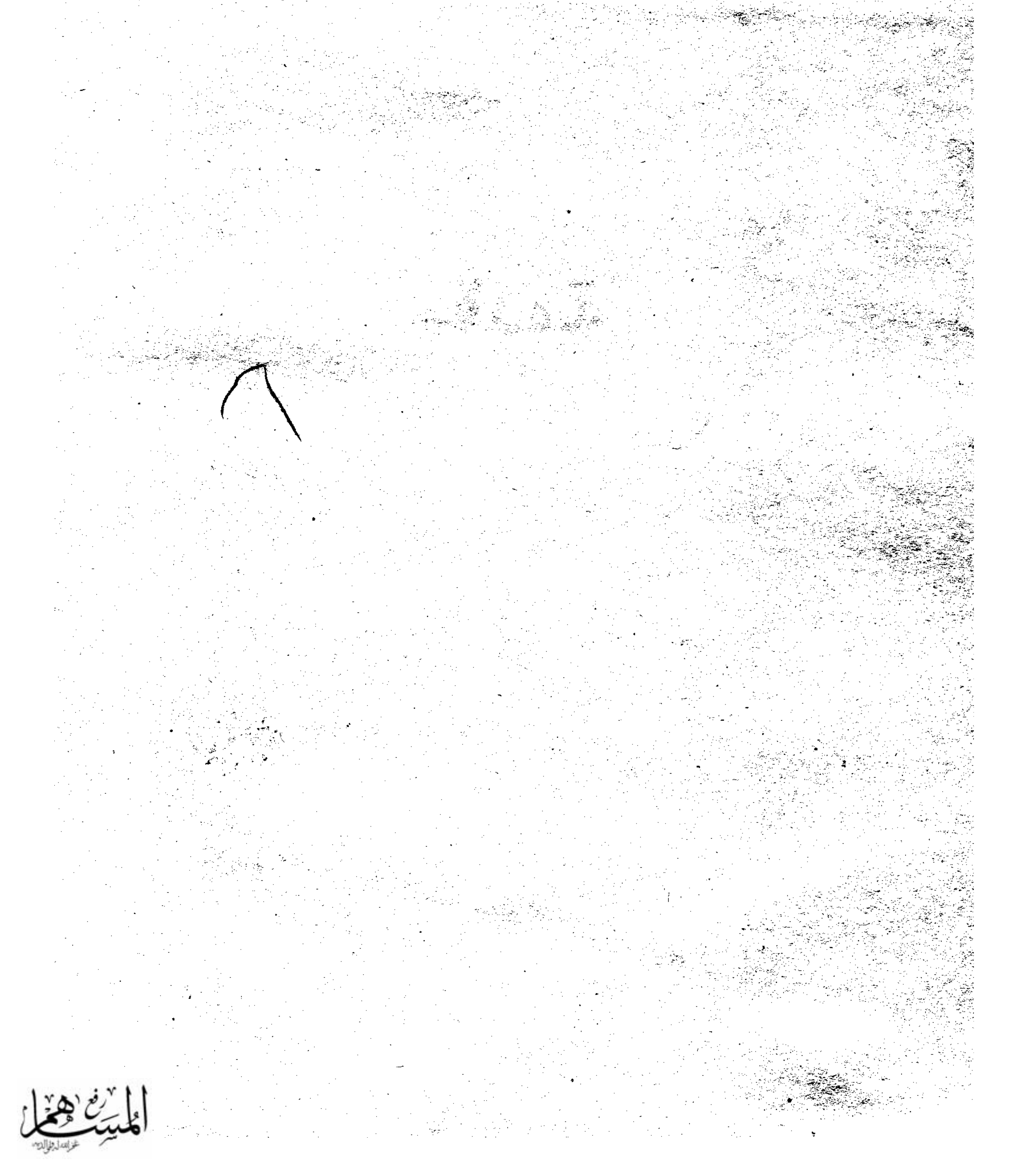
﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : ٧٨] .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم هو الذى يحفظ اللغة العربية ، وليست اللغة العربية هى التى تحفظ القرآن .

كما أنه ليس ممكناً تحقيق نهضة جديدة فى هذا الوطن العربى إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظاً ومعنى .. وتلاوة وتدبّراً .. ونصاً وتطبيقاً .

* * *

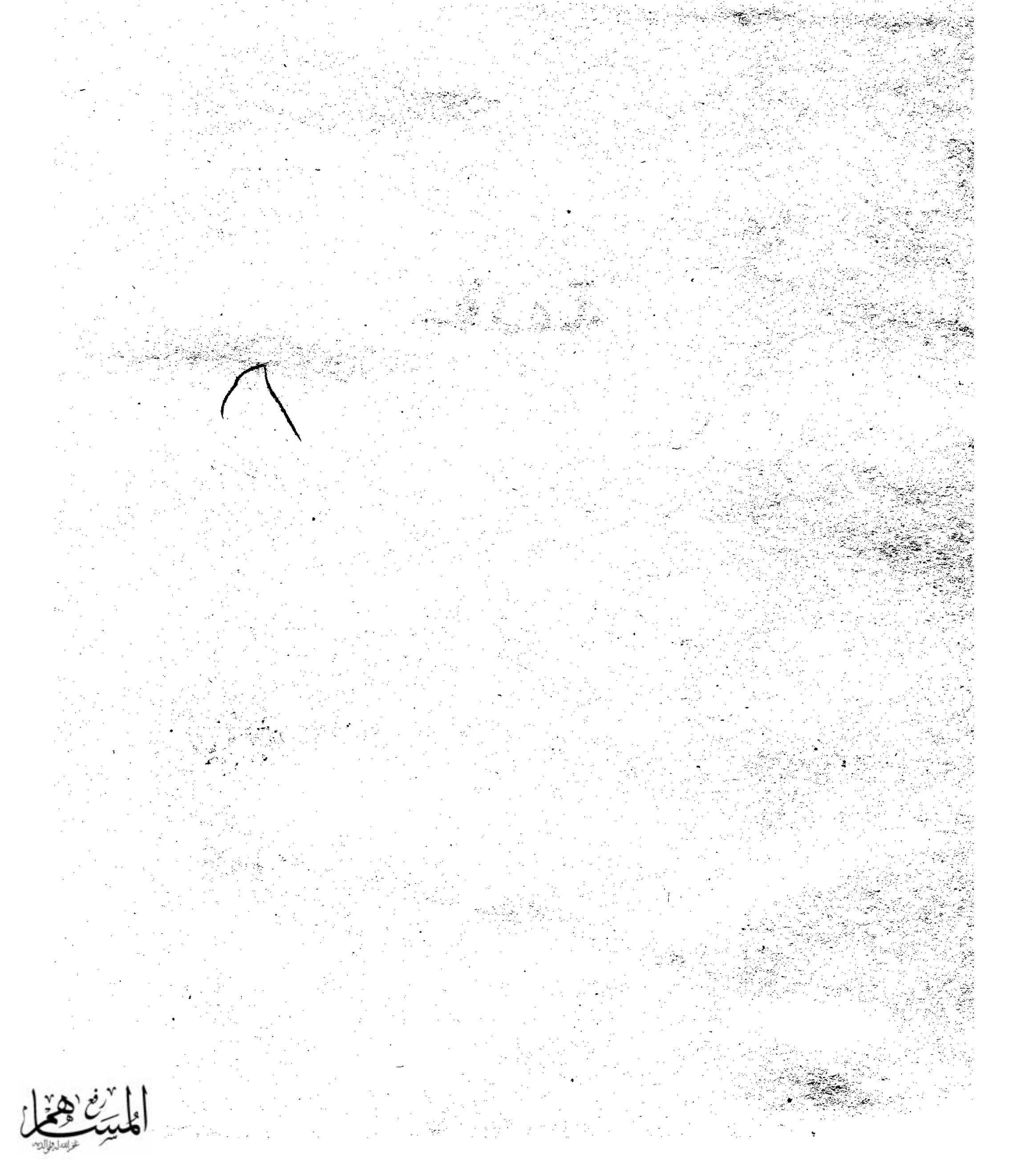
(١) تحت راية القرآن / ٤٧ .



الفصل الثامن

دلالة الكلمة العربية
نظرة فى إعجاز القرآن





ينبغى أولاً أن نشير إلى أن عبارة (إعجاز القرآن) عبارة وضعها علماء البلاغة الأقدمون للدلالة على مضمون التحدى الوارد فى عدد من آيات القرآن ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وليس فى القرآن سوى مفهوم التحدى الذى جاء مرة بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، ثم ضرب الله الإنس والجن بالعجز عن الإتيان بمثله : ﴿ ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

ولابد أن نقرر هنا أن مفهوم (الإعجاز) كان قائماً ووارداً من أول يوم نزلت فيه الآيات الأولى من سورة العلق : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق ... ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

ولكن هذا المصطلح لم يصر عنواناً على المشكلة إلا من خلال جدل المتكلمين ، وفى مقدمتهم شيخ المعتزلة أبو اسحق النظام ، ثم قفى على إثره أبو عثمان الجاحظ ، وتتابعت أجيال العلماء بعد ذلك بدءاً بالباقلانى (توفى عام ٤٠٣ للهجرة) الذى وضع كتابه بعنوان : (إعجاز القرآن) فصار المصطلح عنواناً رسمياً على باب عظيم من أبواب الدراسات القرآنية .

أما نحن فنتخذ فى هذا البحث طريقاً لم يسر فيه الأقدمون ، ولا المحدثون ، ونرى أن القضية المنهجية تبدأ من أبسط عناصر الأسلوب القرآنى ، وهو اللفظ المفرد ، ففى هذا العنصر تمت معجزة تفردت بها قدرة الله سبحانه وهو يقول : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : ٥٢] .

لقد اختلف القول فى وجوه إعجاز القرآن ، بين موسع ومضيق ، ومطلق ومقيد ، ومهما اختلفت الأقوال واستجدت الآراء فإن هناك إجماعاً على أن الإعجاز البيانى هو أساس كل إعجاز قرآنى .

ففي بيان القرآن تستكن كل وجوه إعجازه ، ما بين علمي وتشريعى ، وإعلامى ، وعلى أساس ما ندرك من تراكيبه ومفرداته يكون تصورنا لآيات الله فى مضمونها الذى نبحث عنه .

إن الآية الكريمة السابقة تقرر أن الله سبحانه جاء عباده بكتاب فصله على علم ، وقد يكون مما تحتمله عبارة ﴿ فصلناه على علم ﴾ : فرقناه عالمين بمواقع بعضه من بعضه ، أو بيّناه على علم بمحتواه ومضمونه من حقائق الوجود وسننه ، والمعنى الثانى أرجح فى نظرنا ، لأن الآية التالية ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ تشير إلى تطلع القوم إلى تأويل ما جاء فى هذا الكتاب ، والتأويل بيان لمضمون النص ، كما أنه كشف عن عاقبة الإعراض عنه . (١)

ولا ريب أن ما ينطوى عليه القرآن من دلالات تراكيبه وعباراته ، وجمله وآياته ، هو فى الحقيقة نابع من دلالة كلماته ومفرداته ، وقد أشبع المفسرون ـ قدامى ومحدثون ـ تراكيب القرآن وصوره بحثاً وتحليلاً ، ودرسوا تشبيهاته واستعاراته وكناياته ومجازاته ، كما درسوا الصور الجزئية ، والصور الكلية ، والمشاهد التصويرية التى تستحضر أهوال القيامة قصداً إلى بيان إعجاز القرآن ، كما فعل الأستاذ سيد قطب .

أما دلالات المفردات فقد تكفلت بها معاجم اللغة فى ضوء الحقيقة والمجاز .

فمن الحقيقة : دلالة المفردات فى قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول

---

(١) ومن التأويل ما يقصد به إفساد النص ، كما يفعل العلمانيون الآن .

قد خلت من قبله الرسل ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ .

ومن المجاز : دلالة لفظة (الغائط) على الحدث الأصغر فى قوله تعالى : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ ، ومعناه الحقيقى : الستر ، ودلالة لفظة (خمرا) على العنب فى قوله تعالى : ﴿ إنى أرانى أعصر خمراً ﴾ ـ ومعناه الحقيقى : المتخمر المسكر بما فيها من غول ، ودلالة لفظة (لامستم) على الجماع ، فى قوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ ، والمعنى الحقيقى هو المس باليد .

وقد تكفلت ببيان هذه الدلالات كتب الأصول إلى جانب ما نصت عليه معاجم اللغة .

ولو أن القرآن الكريم دار فى دلالاته بين هذين البعدين : الحقيقة والمجاز ـ لما كان هنالك مشكلة فى فهمه ، ولاستطاعت مجموعة التفاسير التى أنجزت أن تفى ببيان معانيه ، دون أن يشعر كل جيل أنه بحاجة إلى تفسير جديد يوائم حاجاته إلى فهم القرآن فى ضوء المتغيرات العصرية .

لقد لوحظ ـ بحق ـ أن لكل جيل حاجته الملحة إلى فهم متجدد للقرآن ، فهل نستطيع أن نتخيل أن الإجابة عن هذه الحاجة يمكن أن تتحقق بمعرفة المعنى الحقيقى للفظ ، والمعنى المجازى ، وهما وجهان لعملة واحدة ؟!

إن تفسير النصوص الأدبية يتم عبر الأجيال بطريقة واحدة ، عن طريق دراسة دلالات الألفاظ ، ومتابعة المعنى التركيبى الذى يتألف من معانى المفردات فى سياقاتها ، وتعتبر المعاجم القديمة مصادر لمعرفة المعانى القديمة وليس من المنطق أن يفسر بيت قديم من الشعر بحمل ألفاظه على معان محدثة ، والعكس أيضاً صحيح .

أما شأن القرآن فعجيب ، إذ هو يخرج تماماً عن حدود هذه القاعدة ، حيث تتسع ألفاظه للمعانى المحدثة فى حالات كثيرة ، ولا سيما (الألفاظ المفاتيح) ، التى تتصل بمعانى الصفات الإلهية ، والغيب ، والعلم الإلهى ، والموجودات الكونية التى أثبت القرآن وجودها ، بل وكثير من الألفاظ الأخرى .

ومن أمثلة ذلك كل صفات الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام ، إلى آخر صفاته الحسنى ، ومن أمثلته أيضاً ألفاظ الملك ، والجن ، والسماء ، والعرش والكرسى واللوح والقلم ، ومن أمثلته كذلك ألفاظ الجنة والنار ، والحساب ، والكتاب ، والصراط ، والقيامة ... إلخ ، فكل هذه الألفاظ العربية ذات مدلول لغوى محدد ، ولكن مدلولها القرآنى غير محدد ، أى : إننا نعرف مبتداها ، ولكننا لا نعرف منتهاها .

ولكى ندرك هذه الحقيقة ينبغى أن نتذكر أن هذه اللغة نشأت فى وسط بدوى .. كل أبنائه يتفاهمون بها تفاهماً دقيقاً .. يعرفون دلالات الألفاظ ، وإيحاءات التراكيب ، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه وجد صعوبة فى الاتصال بالآخرين عن طريق استخدامه للعربية .

فلما جاء القرآن واجه العرب بسماعه وضعاً جديداً مذهلاً ، نشأ فيما قيل عن النمط التأليفى الذى صيغت به آياته ، فليس هو نمط الشعر ، ولا نمط النثر ، ولا نمط سجع الكهان ، وهذا ولا شك صحيح ، فيما أثر عن فحول الجاهلية ، ولكنه ليس كل شىء فى تقديرنا ، ذلك أن تراكيب القرآن التى بهرت أهل البيان من معاصرى النبي ﷺ ما زالت هى هى .. لم تتغير ، ولم يطرأ أدنى تغير على ما وصفت به من الأحكام من حيث هى قمة البلاغة والفصاحة ، ومن حيث هى قمة الإبداع والإعجاز التصويرى ، ولا جديد من ذلك في وصف هذه التراكيب يمكن أن يضاف إلى ماذكره قدامى البلاغيين .

وإنما ينبع الجديد من ملاحظة ظاهرة التغير الدلالى التى سجلتها مجموعة

كبيرة من الألفاظ القرآنية ، حتى إن اللفظ يبدأ فى لسان أهل الجاهلية محدود الدلالة ، فإذا هو معنى متراحب لا يطيق العقل أن يدركه ، أو يحدد دلالته فى لغة القرآن .

ولنأخذ كمثال لفظة (القلم) ، وقد كانت لأهل الجاهلية أقلام ، يستخدمونها فى صناعة الكتابة ، ويتخذونها من أعواد النبات ، لا يتعدى لفظ القلم هذا المدلول المادى الضئيل ، ومع ذلك نجد أن القرآن فى الآيات الأولى يذكر (القلم) مرتين ، مرة فى سورة العلق : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ ، ومرة بعدها مباشرة فى سورة القلم : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ، والمقصود بالكلمة فى الآية الثانية هو المعنى الأصلى الحقيقى ، نظراً إلى ارتباطه بما يستخدم فيه على أيديهم ﴿ وما يسطرون ﴾ ، ولكن المقصود فى الآية الأولى متصل بعلم الله الذى يفيضه على الإنسان ، فالقلم هنا هو ذلك الوجود المخلوق الذى يسجل كل شىء ، والذى علم الله به الإنسان ما لم يعلم ، وبين المعنى الأصلى والمعنى القرآنى مسافة تنتهى إلى المجهول ، فهو بلا شك البعد الإلهى فى الدلالة ، وهو بعد لا نهائى ، على شكل المخروط ، الذى يبدأ بنقطة ، وينتهى إلى علم الله اللامحدود ، وهكذا قفزت العربية فى معنى المفردة قفزة لم تعرفها لغة أخرى .

والدلالة الثانية هنا ليست مجازية .. بل هى دلالة حقيقية ، ولكنها اتسعت بصورة لم يكن يطيقها خيال المجاز ، ولفظة (القلم) يمكن أن يراد بها المعنيان فى نفس الوقت ، وهذا هو الفرق الدقيق بين اتساع الدلالة الحقيقية ، وبين تنوعها من حقيقة إلى مجاز .. إذ لا يمكن أن يقصد المجاز والحقيقة معاً .

وعلى هذا المقياس يمكن النظر فى ألفاظ القرآن التى ذكرنا طوائفها ، فالألفاظ الدالة على صفات الله ذات دلالة لا نهائية إذا جاءت فى سياق قرآنى ، وهى ذات دلالة محدودة إذا وصف بها الإنسان ، فالله عالم غيب السماوات والأرض ، بلا حدود لهذا العلم ، وبلا تحديد لماهيته ، وللفظ دلالته على ذلك

المدى ، والإنسان قد يكون (عالماً) في حدود التخصص ، والذكاء ، والموهبة ، والادعاء أيضاً ، ومن هذا الباب جاء في القرآن : ﴿ إن الله عالم غيب السماوات والأرض ﴾ ، وجاء أيضاً : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

ومثال آخر على تراحب المعنى القرآني كلمة (السماء) ، وجمعها : (السماوات) ، ولقد جاءت هذه الكلمة دائماً مقرونة بذكر الأرض في سياق يوحي بأنهما طرفا المعادلة الكونية ، وهذا صحيح من الناحية الإنسانية ، لأن حياة الإنسان تتصل بالأرض باعتبارها مسقط رأسه ، وبالسماء باعتبارها الطرف الآخر الذي يظله ، وهو المقابل لمسقط الرأس ، والمغاير له ، رغم التفاوت بينهما .

ويعرف المعجم العربي اللفظتين تعريفاً إجمالياً فيقول : كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما وطئته قدماك فهو أرض ، وبذلك نفهم أن سماء البيت سقفه ، والسحاب سماء ، كما هو تعبير القرآن : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يريد السحاب ، والسماء هي القبة الزرقاء التي تعلونا ، وقد فهم المفسرون من قوله تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ مايتصل بالسقف العالي المحفوظ من أن يقع ويسقط على الأرض بدليل قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ ، وقيل : محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد ، وقال مجاهد : مرفوعاً [القرطبي ١١/٢٨٥] ، ولعل المراد : أن الله يمسك ما في السماء من كواكب ونجوم أن يقع على الأرض ، فهذا معنى آخر للسماء .

ولا شك أن اللغة لا تمانع أن يكون معنى السماء بهذا المعنى ، الذي عرفه الذوق اللغوي العربي ، غير أن المعنى القرآني يتراحب ليشمل الكون كله في قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ ، فالسماء هنا تعني الكون كله ، ذلك الذي بنته قدرة الله ، وهي مستمرة في توسيع أرجائه ، على النحو الذي وصفته نظريات علم الفلك الحديث ، حين قررت أن امتداد الكون مستمرفي كل اتجاه بسرعة أكبر من سرعة الضوء ، في جميع الأبعاد ، تماماً

كما يتسع البالون عند النفخ فيه .

وبذلك أصبح لفظ (السماء) يعني الفضاء الكوني المحيط بنا ، أو بالأحرى المحيط بكرتنا الأرضية ، فالأرض كروية ، والكون كروى أيضاً ، وكل الأجرام السماوية تتخذ هذا الشكل المستدير بحكم دورانها في جو السماء ، أو في الفضاء السماوي .

ولهذا نفهم قوله تعالى في وصف الجنة : ﴿ عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ بأن اقتصار القرآن على ذكر (العرض) هو دليل على هذه الكروية الكونية ، إذ لا طول للكرة ، وإنما هو بعد قطرى عبّر عنه القرآن بالعرض ، في هذه الإشارة المعجزة ، التي طالما غفل المتحدثون في النص الكريم عنها ، فتساءلوا من باب تعظيم القدرة الإلهية ، هذا العرض ، فما بال الطول ؟! .. وما كان القرآن بالذى يغفل هذه الإشارة إلى الطول لو كان لها موضع .

وهكذا يتغير مفهوم (السماء) ليشمل الكون كله بأبعاده القريبة ، على مسافة عشرين مليارا من السنين الضوئية ، وما وراء هذه الأبعاد مما لا يعلمه إلا الله ، فكل ذلك امتداد لا نهائي في مدلول الكلمة ، أضافه القرآن إلى رصيد اللغة وبيانها ، وما زال احتمال تغير المعنى قائماً .. بل هو الأمر المؤكد .

وما دمنا تعرضنا لأبعاد الكون فلا بد لنا من وقفة أمام معالجة القرآن لهذا الجانب من تصور العظمة الإلهية .

إن الطريقة التي تحدث بها القرآن عن خلق الكون تجاوزت في حساباتها السرعة الضوئية التي يقيس بها الإنسان الأبعاد والآماد ، وهذا الأسلوب هو الذى حيّر العقول ، ووقفها أمام دلالات جديدة حمّلتها ألفاظ اللغة ، ففي القرآن كلمة من حرفين ، تعبر عن أقصى مدى يبلغه التعبير عن تصور السرعة ، هذه الكلمة هي (كن) ، وهي تعبير عن مقياس السرعة الإلهية ، التي تعتبر السرعة

الضوئية بالقياس إليها سرعة سلحفاة ، أو أدنى من ذلك .

وإذا كان الإنسان قد اعتبر سرعة الضوء ، وهى ١٨٦٠٠٠ ميلاً فى الثانية ـ هى أعلى سرعة بلغها تصوره ، وقاس بها أبعاد الكون ، فإن ما يبعد عنا بمدى عشرين ملياراً من السنين الضوئية مثلاً لم يكن إلا ثمرة (كن) ، أو بالأحرى ـ لم نكن نحن وهذه الموجودات بأبعادها السحيقة التى ندركها الآن إدراكاً رياضياً ـ إلا إنجازاً لتلكم السرعة الكُنّية [1] ، فبين الكاف والنون تتم إبداعات القدرة الإلهية ، بمقياس كونى يلغى الزمن ، فلا يجعله شرطاً للإبداع الخالق ، وإن جعلته الإرادة المبدعة بعداً رابعاً للوجود ، وشرطاً لا ستمراره ، فالزمن مخلوق كما أن المادة مخلوقة .

وبين مدلول السرعة الكنية ، حيث لا زمن ، ومدلول السرعة السلحفائية ـ إن صح التعبير ـ تقع كل احتمالات قياس السرعة على اختلاف تصوراتها ، من جاذبية ، إلى صوتية ، إلى ضوئية ، إلى إدراكية عقلية .

وعلى هذا لا يكون ما نقوله عن السرعة الكنية متعارضاً مع ماجاء فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ﴾ ، لأن هذه مشيئة الإرادة التى تملك الإنجاز فى لازمن ، كما تملكه فى نطاق الزمن ، وهى التى ربطت بين المادة والزمن .

وعلى أية حال ، إن استخدام الكلمات الدالة على الزمن كاليوم ، والساعة ، والدهر والشهر ، فى القرآن مختلف فى الدلالة عن استخدامها فى اللغة العامة ، فى الغالب ، وقد يصل أحياناً إلى درجة المتشابه ، فهذه الستة الأيام لا أحد يعرف حقيقتها ، أو مقياسها ، فقد كانت قبل الخلق ، حتى جاءت

---

(١) لما كان النسب هنا إلى ثنائى البنية وجب تشديد أو تضعيف الحرف الثانى لتصبح الكلمة ثلاثية ، ويصح النسب إليها ، وللعلم فهذه الكلمة هى من إبداع هذا المقال .

ظرفاً زمنياً لخلق السماوات والأرض ، فهي إما أيام ذات مقياس مختلف ، وإما أن تكون من أيامنا ، والله أعلم أى ذلك كان ، لكننا نأخذ هذا الاختلاف على أنه اتساع دلالي يتراوح بين معنى اليوم فى قوله تعالى : ﴿ **لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ ، ومعناه فى قوله : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ .

ولعل من الضرورى أن نقدم أمثلة من مجال خلق الإنسان لنطبق عليها هذه النظرية العلمية ، فربما اهتدينا إلى شعاع من إعجاز القرآن فى هذا المجال .

وأول ما يخطر لنا كلمة (تراب) الواردة فى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب** ﴾ .

والتراب إذا أضيف إليه (الماء) صار (طيناً) ، وقد عبر به القرآن عن هذه الحالات الثلاث فى قوله : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً** ﴾ ، ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾ ،وأضافه إلى التراب فصار طيناً : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ .

والتراب هو مادة الأرض ، وقد اعتبر فى نظر مؤلفى المعاجم معروفاً ، فلم يعرّفوه ، ولكن القرآن اهتم بالربط بينه وبين الإنسان ، منشأ ومصيراً .. فما حقيقة هذا المنشأ ؟

يقرر التحليل العلمى أن عناصر التراب تبلغ اثنين وعشرين عنصراً .. منها : الأكسچين ، والهيدروچين ، والكربون ، ومنها تتشكل المركبات العضوية من سكريات ودهنيات وبروتينات وفيتامينات وهرمونات .

كذلك نجد من مكوناته : الكلور ، والكبريت ، والفوسفور ، والمغنيسيوم ، والكلسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والحديد ، والنحاس ، واليود ، والمنجنيز ، والكوبالت ، والتوتيا ، والمولبيديوم ، والفلور ، والألمنيوم ، والسيليكيوم ، والكادميوم ، والكروم .

هذه هى حقيقة التراب فى ذاته ، ودلالته العلمية التى نذكرها عندما نريد بياناً لماهيته ، ولكن التراب المذكور فى القرآن على أنه مادة خلق الإنسان يزيد عن ذلك عنصراً إلهياً لا يدخل فى اختصاص المعامل والمختبرات ، ولولا هذا العنصر الذى يعتبر أساس الإبداع ما تحول التراب إلى مادة حية ، وبين أيدينا تراب الأرض ، وفى أيدينا وسائل العلم المتقدمة ، ومع ذلك لا يمكن أن نصل إلى شىء من سر هذا التراب المتخلق ، وبعبارة أخرى : إن للتراب القرآنى مدلولاً أوسع من مدلول التراب الأرضى ، وللغة سلوك متميز حين تخص العناصر المختلفة بأسماء تعين اختلافها ، أما لغة القرآن فقد أبقت على الكلمة كما هى ، مع ما طرأ على معناها من اتساع .

وكذلك يختلف مدلول الماء العادى عن مدلول الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، وكلاهما ماء ، وكذلك الطين ، والصلصال ، والحمأ المسنون .. كانت قبل القرآن تعنى شيئاً عادياً أو ضئيلاً ، فصارت بالقرآن تعنى الشىء الكثير اللا متناهى .

ولا ريب أن الإنسان قد ازداد علماً بمكونات النطفة ، والعلقة والمضغة ، ولكنه سوف يظل محجوباً عن كثير من أسرارها ، ولا سيما الجانب الإلهى فى دلالاتها ، مع أنه يستخدم الكلمات الآن فى التعبير عن مدركاته العلمية فى هذه الكائنات ، كما استخدمها السلف فى التعبير عن إدراكهم الإجمالى لها ، وكما سوف يستخدمها بصورة أوسع علماء المستقبل ، ولكن يبقى لها البعد الإلهى ، الذى يحكمه قول الله سبحانه : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

فإذا قيست دلالة هذه الكلمات كما كانت فى لسان العرب قديماً ، بما صارت إليه فى لغة القرآن أدركنا ما طرأ عليها فى الاستعمال من رحابة واتساع ، وأدركنا أيضاً أن المدلول يزداد اتساعاً مع تقدم البحث العلمى .

ومثال آخر يمكننا أن نقدمه : هو وصف القرآن للمحيض بأنه (أذى) فى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ، وقد كان السلف يدركون من هذه الكلمة معنى أن المرأة تتأذى منه ، ويراجحه ، ومن أجل هذا أمر الله عز وجل الرجال بقوله : ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ ، وها نحن أولاء نشهد معانى جديدة لكلمة (أذى) ، وما تشير إليه البحوث يدل على أن القرآن قصد بها التعبير عن جملة من الأمراض الخطرة التى تصل إلى السرطان ، فقد اتسع بفضل البحوث العلمية المعاصرة مفهوم الأذى ، ولا نتصور أن معناه قد توقف عند هذا الحد ، بل إن استمرار البحوث سوف يوسع فى دلالة اللفظ ، ويكشف عن أسرار الحكمة الإلهية أو بالأحرى عن بعض هذه الأسرار ، وتظل كلمة (الأذى) عنواناً على دلالة مرنة قابلة للزيادة ، بقدر ما أراد الله سبحانه إيداعه فى الكلمة من مضمون ، يتراحب حتى يضم كل الاجتهادات العلمية ، إلى نهاية الزمان .

ومن هذا القبيل كلمة (البر) التى حدد لها القرآن مدلولاً لا يمكن تحديده إلا فى علم الله وحده : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر ... ﴾ .

وكلمات : العلم والحكمة ، والعمل ، والتقوى ، والحب ، وحسبك بهذه الأخيرة فى دلالتها على معنى لا نهائى فى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ، ولا سيما إذا لاحظنا تضامن التركيب كله فى أداء هذه القيمة الدلالية غير المحدودة .

هذا هو الإعجاز القرآنى الذى منح اللفظ العربى امتداداً فى المدلول ، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لغة من لغات البشر ، وهو إعجاز من جوانب عدة :

أولها : أنه قد حدث بتأثير كتاب على لغة ، وهو أمر لم يحدث فى تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة ، واستخدم اللسان ، فالعهد باللغات أن تتطور عبر القرون

والأجيال ، أما فى هذه الحال القرآنية فقد حدث التطور فجأة ، كما نعلم ، وإن استمر نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة .

وثانيها : أن أساس التحدى فى الإعجاز هو الكلمة ، بكل بنيانها ، فقد نجد فى القرآن كلمة على حرف واحد ، أفادت من الاستعمال القرآنى تعدداً فى المعنى ، وسعة الاستعمال ، وقد تكون على حرفين وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، وهذا هو المقياس الكمى الذى وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة .

ولعله من أجل هذا كان اقتصار فواتح السور ـ وهى لا تخرج عن غرض التحدى أيضاً ـ على هذا المقياس الكمى ، ففيها حرف ، وإثنان ، وثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، وهى أقصاها فى مثل : كهيعص ، وحم عسق ، فهذه الفواتح إنما جاءت هكذا لتحريك فضول العربى إلى تبين حقيقة ما يواجه من تحد فى لغة القرآن ، فهى مقاييس لما عرفه من كلمات فى لغته ، وهو يعجز عن أن يضمنها شيئاً من معنى جديد ، على حين كان القرآن يطرق سمعه دائماً بهذا الجديد ، وهو أمر لا تطيقه قدرة بشر ، ومن هنا كان الإعجاز .

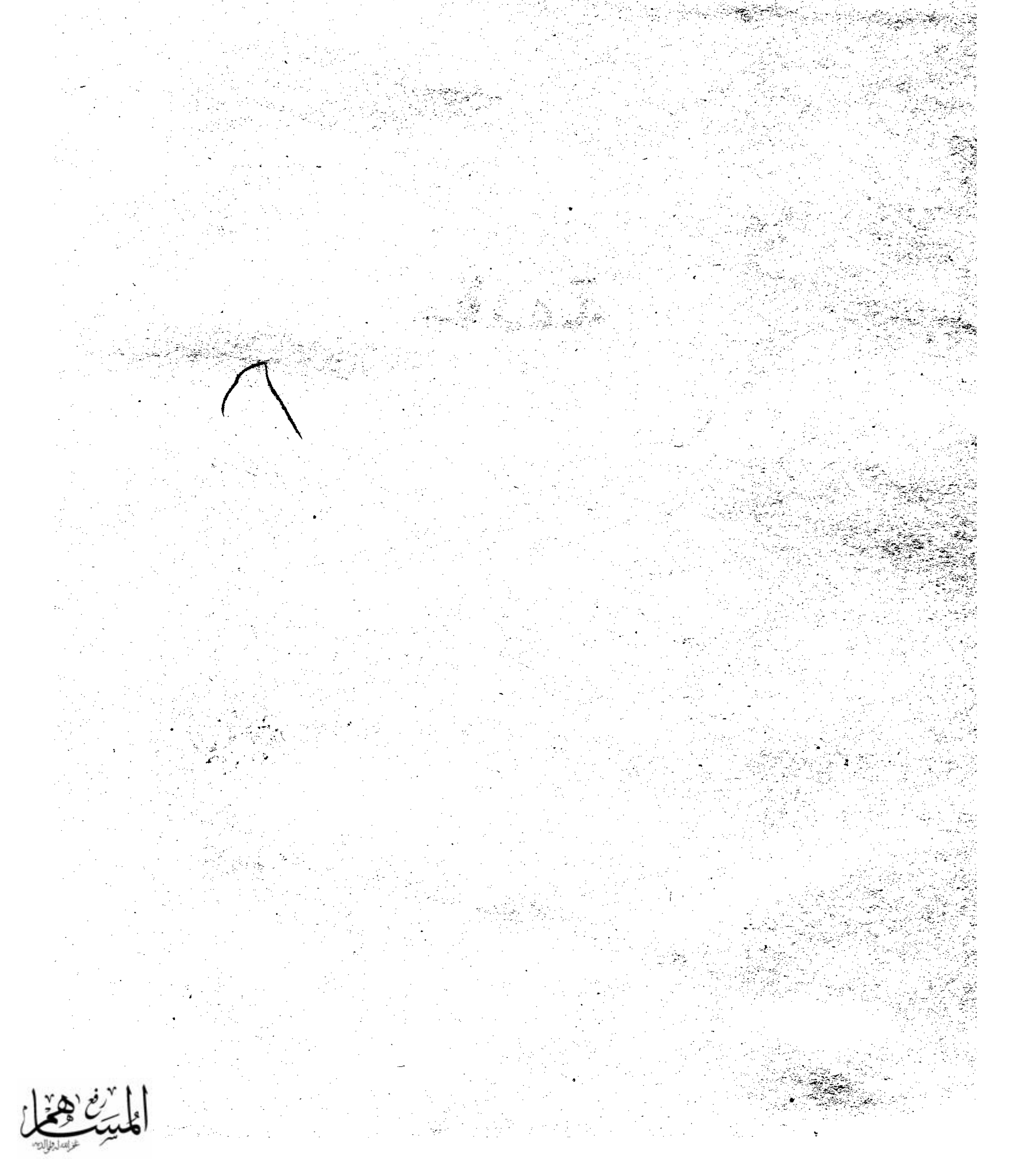
وثالثها : قابلية اللفظ القرآنى لتحمل المزيد من الدلالة ، وهو بذلك يمنح العربية مرونة فى الأداء ، ومواكبة لتطور العلم ، وقدرة على استيعاب حقائقه فى كل جيل ، وهو ما يتجلى فى البحوث التى تصل إلى حقيقة علمية جديدة فتجد فى القرآن مصداقيتها .

ولا شك أن ذلك كله يضفى على بيان القرآن التركيبى أثره العميق ، ويساعد على تطوير علم تفسير القرآن بشكل عام .

وأخيراً ، لقد وضح لنا ، بعد أن طبقنا هذه الفكرة على بعض المفردات القرآنية ـ أننا بصدد نظرية جديدة فى دلالة الألفاظ القرآنية ، تدل على إعجاز

القرآن ، بقدر ما دلت نظرية القدماء على الإعجاز البلاغى التركيبى ، بل إن هذا التصور الجديد أكثر خصوبة ، وأعظم إثراءً للغة العربية فى باب المفردات ، ولعل بحوث المستقبل تكشف فى هذا الباب عن أسرار الإعجاز القرآنى .. تلك التى دفع غموضها الوليد بن المغيرة ليقول حين سمع القرآن : (لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن) ، ولقد صدق الرجل فى التعبير عن حيرته ، فإن هذا الجانب من الإعجاز القرآنى لا ينتمى إلى مستوى مألوف فى ألسنة البشر ، أو غيرهم ، ولكنه بكل إعجاز : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

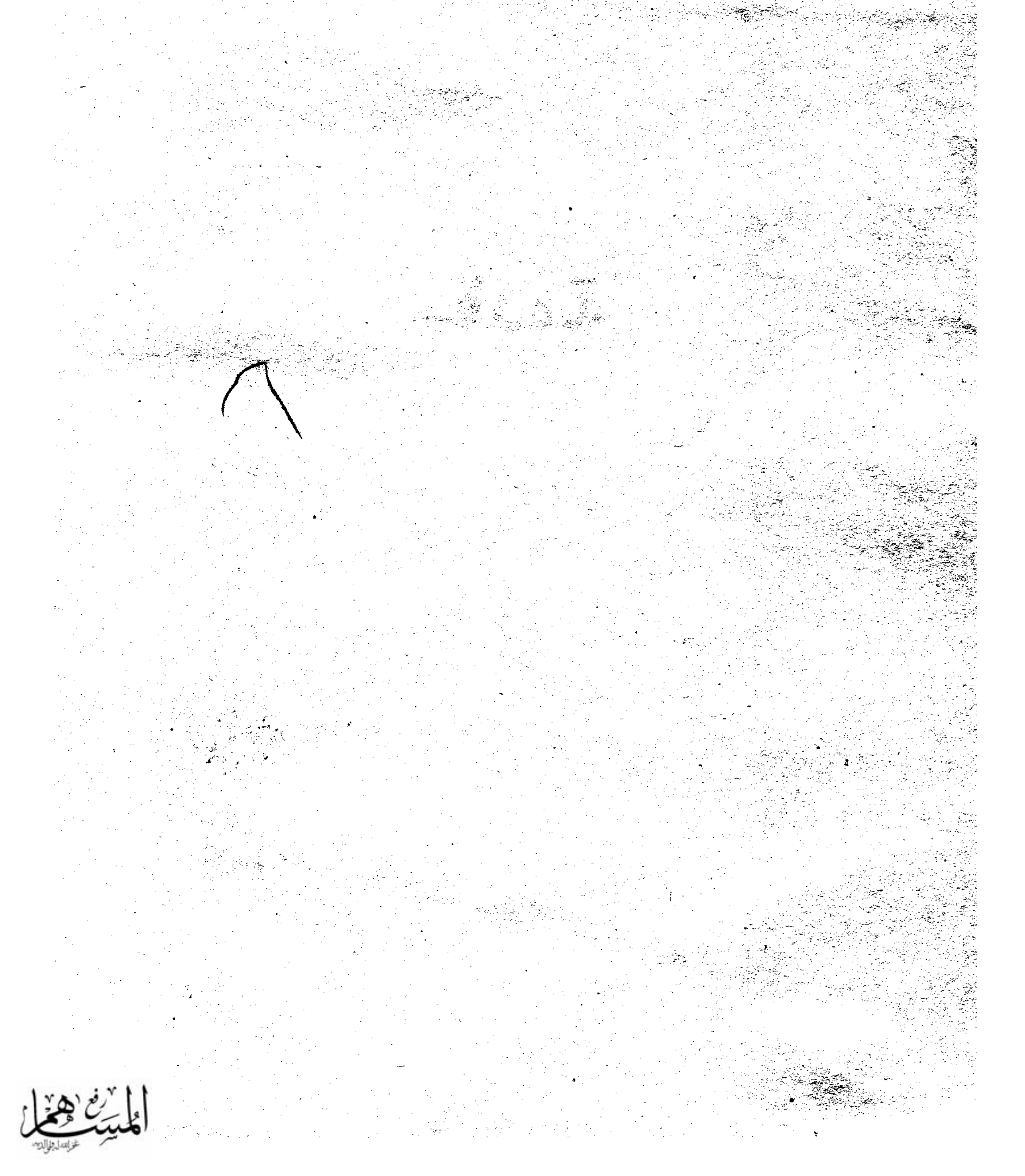
* * *



الفصل التاسع

دراسة إحصائية فى جذور القرآن





نظرة عامة :

يراد (بالجذر) مادة الكلمة التى هى حروفها الأصلية .. لا تكون فى العربية أقل من ثلاثة أحرف ، ولا أكثر من خمسة .

وقد قرر الصرفيون أن المادة التى يبنى منها الاسم قد تكون ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، مثل : جبل ـ جعفر ـ سفرجل .

أما مادة الفعل فلا تكون إلا ثلاثية أو رباعية ، مثل : كتب ـ دحرج .

وعلى أية حال فإن الجذر فى كل هذه البنيات هو عبارة عن مجموعة صوامت تكتب هكذا : جبل ـ ج ب ل ، وجعفر ـ ج ع ف ر ، وسفرجل ـ س ف ر ج ل ، وأيضاً : كتب ـ ك ت ب ، ودحرج ـ د ح ر ج ، وتنطق هذه الحروف بأسمائها منفصلة : كاف تاء باء أو دال حاء راء جيم .. إلخ ... دون حركات ، وعلى هيئة منفصلة .

هذه المجموعة من الحروف الصوامت التى يتكون منها الجذر تحتوى المعنى المقصود منها بالقوة ، أى : إنها فى مجموعها تعبر عن معنى معين بشرط تتابعها على نحو معين ، وبشرط ألا يختلف هذا الترتيب ، فإذا اختلف الترتيب كان جذر آخر ، له معنى آخر ، فمجموعة (ك ب ر) غير مجموعة (ك ر ب) ، وهما مختلفان عن (ب ر ك) و (ب ك ر) ، وغير (ر ك ب) أو (ر ب ك) ، فكل مجموعة من التنوعات الستة لها معنى تتضمنه بالقوة إن كانت مستعملة فى اللغة ، وهو معنى لا يظهر إلا إذا تدخلت الحركات ، إما وحدها ، وإما مع زيادات للحصول على صيغة من صيغ الزوائد ، فإذا أخذنا

مجموعة (ك ب ر) مثلاً ، فأدخلنا عليها الحركات مثل (كبّر) - أفادت الصيغة معنى الفعل ، وإذا زدنا على الحركات الألف والسين والتاء ، فصارت الصيغة (استكبر) ـ أفادت معنى آخر ، وهو أيضاً خلاف معنى صيغ : (كبُر ، وتكبَّر ، وكابر ، وأكبر) . بكل ما يحتمله البناء من صيغ اسمية تناسب كلا من هذه الصيغ الفعلية .

ولعلنا لو تابعنا جذراً واحداً من جذور القرآن فى تنوعه مجرداً ومزيداً ـ تتضح لدينا الصورة بشكل أفضل ، وليكن الجذر (ن ب أ) ، فقد تحقق في لغة القرآن بالصيغ الآتية : نبّأ ـ أُنبّىء ـ لَتنبئنّهم ـ نبّىء ـ لتنبؤنّ ـ ينبأ ـ أنبئهم ـ أنبأهم ـ نبأ ـ أنباء ـ نبىّ ـ نبيّون ـ أنبياء ـ نبوة .

فهذه الصور إذا ضمت إلى حالات الإضافة إلى الضمائر المختلفة ، ارتفع عددها إلى قريب من خمسين صورة ، أساسها هو الجذر (ن ب أ) ، وهكذا في كثير من الجذور التى جاءت بها لغة القرآن ، مثل : ب ش ر ، ت ب ع ، ج ع ل ، ح م ل ، ح ى ى ، خ ر ج ، خ و ف ، د ع و ، ذ ك ر ، ر أ ى ، ر ح م ، ر د د ، ر ز ق ، ر س ل ، س أ ل ، س م ع ، ش هـ د ، ض ل ل ، ع ب د ، ظ هـ ر ، ع ذ ب ، ع ل م ، ع م ل ، ف ع ل ، ق ت ل ، ق د ر ، ق و ل ، ك ف ر . إلخ .

وإذا كان التنوع فى الصيغ باباً من أبواب الثراء فى لغة القرآن ـ فإن اختلاف المعنى المراد من استخدام الجذر ، ما بين حقيقة ومجاز واشتراك هو أيضاً باب من أبواب الثراء فى لغة القرآن ، فالجنة بمعنى بستان أو حديقة ، هو تعبير من باب الحقيقة ، ولكن الجنة الأخروية شىء آخر يختلف ، والجامع بين الجنتين أن كلتيهما سبب من أسباب السعادة فى الدنيا ، وفى الآخرة ، وهما - فى رأينا - إطلاقان على سبيل الحقيقة .

والمجاز أعظم وسائل توسيع اللغة ، وتقوية أدائها ، فإذا دل الجذر بذاته على

معناه الحقيقى ، فإنه يدل فى السياق على جملة من المعانى المجازية ، وهو ما نلاحظه - مثلاً - فى دلالة الجذر (ع ى ن) يقول ابن فارس : « العين والياء والنون أصل واحد صحيح يدل على عضو به يبصر وينظر » ، ولكن دلالة العين على الجارية ، والنبع ، والجاسوس ، و الحسد - هى دلالات مجازية ، بوساطتها تضاعف دور الجذر ذى الأصل الواحد .

على أن السؤال الآن عن السر الذى يربط بين مجموعة الجذر بترتيب معين ؟

ونحن نلاحظ أن العلاقة بين صوامت الجذر أشبه بالعلاقة بين أعضاء الجسد ، ولابد أن هذه العلاقة نشأت نتيجة العادة النطقية التى ربطت بين تتابع الصوامت وموقف معين ، فالمعنى الخاص للمجموعة تفرضه تلك العادة ، كما يؤثر على هذا الربط المسرح اللغوى ، فلكل موقف لغوى إيحاءاته الدلالية ، التى تستدعى مجموعة الجذر المعبرة عن الموقف ، وهنا تتولى العادة تقديم الجذر المناسب .

ولولا التكرار فى مختلف المواقف ما تعلم الطفل استخدام اللغة ، وهو لم يستكمل بعد أداته العقلية ، وهو مايدل أيضاً على أن العلاقة بين الجذر ومعناه ليست علاقة عقلية ، وإنما هى علاقة اتفاقية ، وليدة المصادفة .

ونزيد هذا الكلام وضوحاً ، فليس ما يمنع من أن يعبر أى جذر عن أى معنى بشرط الاتفاق بين أعضاء المجتمع على هذا التعبير ، أى : إن اللغة هى مجموعة الجذور المتفق على دلالاتها ، والتى يمتصها الفرد بالتكرار والاحتكاك بالمواقف والأفراد .

وربما لا نجد مناسبة بين الجذر والموقف إلا فيما يسمى بالكلمات المحاكية ، أى : التى تحاكى أصواتاً طبيعية Onomatopie ، مثل : أزيز ، وصوصوة ، فى العربية ، و bombe - فى الفرنسية بمعنى قنبلة .

وفيما عدا ذلك لا يمكن التماس أية علاقة بين صوامت الجذر ، سوى الاتفاق والمصادفة والامتصاص .



جذور القرآن :

إن نظرة إلى قوائم جذور القرآن تثير مجموعة من الملاحظات المهمة :

أولها : أن القرآن قد استعمل جذوراً ثلاثية ، وغير ثلاثية ، غير أن الثلاثية أغلب ، فمجموعها ألف وستمائة وستة عشر جذراً ثلاثياً ، فى حين أن ما فوق الثلاثى بلغ سبعة وأربعين جذراً ، أكثرها رباعى .

ومعنى ذلك أن لغة القرآن تعتمد على استخدام الجذور الثلاثية أساساً ، وهو ما يدل على طبيعة اللغة العربية ، فالأصل أنها دائماً ذات طابع ثلاثى ، وإنما يأتى ما فوق الثلاثى فى المرتبة الثانية ، وقد اقتصد القرآن فى استخدام هذا النوع ، رغم أنه وفير فى العربية ، حتى إن نسبة استخدام ما فوق الثلاثى إلى الثلاثى لا تزيد عن (٢,٨٥ ٪) ، وهذا جدول يلخص ما نود أن نقوله [١] :

المصدر	الثلاثى	الرباعى	الخماسى	المجموع	ملاحظات
معجم تاج العروس	٧٥٩٧	٤٠٨١	٣٠٠	١١٩٧٨	نسبة الجذور القرآنية إلى جذور اللغة عامة : ١٣,٨٧٪
القرآن	١٦١٦	٤٧	١	١٦٦٢	

والجذور الرباعية هى الغالبة فيما فوق الثلاثى ، إذ بلغت عدتها خمسة وأربعين جذراً ، وأما الخماسى فهو جذر واحد فى (سلسبيل) ، وهذه قائمة الجذور الرباعية :

---

(١) ارجع إلى : دراسة إحصائية لجذور مفردات تاج العرروس باستخدام الكمبيوتر ـ للمؤلف بالاشتراك .

ب ر ز خ ـ ب ر هـ ـ ن ـ ب ع ث ر ـ ح ص ح ص ـ ح ل ق م ـ ح ن ج ر ـ خ ر ط م ـ خ ن ز ر ـ د ر هـ م ـ د م د م ـ ذ ب ذ ب ـ رف رف ـ زح زح ـ زخ رف ـ زل زل ـ ز م هـ ر ـ س ر ب ل ـ س ر د ق ـ س ر م د ـ س ل س ل ـ س ن ب ل ـ ش ر ذ م ـ ش م أ ز ـ ص ر ص ر ـ ص ف ص ف ـ ص ل ص ل ـ ض ف د ع ـ ط م أ ن ـ ع ب ق ر ـ ع ر ج ن ـ ع س ع س ـ ع ف ر ت ـ ع ن ك ب ـ ف ر د س ـ ف ر ع ن ـ ق ر ط س ـ ق س ط س ـ ق ش ع ر ـ ق ط م ر ـ ق م ط ر ـ ق ن ط ر ـ ك ب ك ب ـ ك و ك ب ـ ل أ ل أ ـ ن م ر ق ـ هـ د هـ د ـ و س و س .

لقد انعدم الخماسى (اسماً وفعلاً) فى القرآن ، فلم توجد له سوى كلمة واحدة ، وقل الرباعى ، حتى بلغت نسبته ٢,٧٪ ، وغلب الثلاثى ، دليلاً على أنه الأصل فى العربية ، وهو ما يدعونا إلى النظر إلى الرباعى على أنه حديث النشأة نسبياً فى اللغة ، وربما كان مزيجاً من ثلاثيين ، كما يقال : إن (دحرج) أصله دحر + درج ، أو كان تكراراً للتأكيد ، كما فى مضاعف الرباعى صف وصفصف ، وزلّ وزلزل ، وذبّ وذبذب ، وصرّ وصرصر ، وكبّ وكبكب ، أو كان اشتقاقاً من جامد ، كما يقال : سنبل من سنبلة ، وخنزر من خنزير ، وعفرت من عفريت ، وقطمر من قطمير ، أو اشتقاقاً من أعجمى مثل : فردس من فردوس .

إن هذا السلوك القرآنى يقطع بأن بناء العربية ، ومقياس فصاحتها رهن باستعمال الثلاثى أساساً وقد يكمل هذه الملاحظة أن نقرر استحالة إضافة أى جذر ثلاثى إلى معجم العربية ، وإن كان ذلك وارداً فى باب الرباعى والخماسى ، لأنهما نتيجة تلفيق .

وثانى الملاحظات : أن نسبة استخدام الثلاثى فى القرآن إلى مجموع

الثلاثيات فى اللغة عامة (طبقاً لإحصائيات تاج العروس) : ٢١,٣٪ .. أى ما يعادل خُمس الجذور المستعملة فى اللغة ، أو أكثر قليلاً .

على حين أن نسبة مجموع الجذور القرآنية إلى مجموع جذور اللغة عامة ـ قد بلغت ١٣,٨٧٪ ، ولا غرابة فى هذا ، لأن تغير النسبة ناشئ عن ضخامة عدد الجذور الرباعية فى اللغة عامة ، وقد قلل القرآن استخدامها إلى هذا القدر المدهش ، وهو الفرق بين (٤٠٨١ جذراً رباعياً فى التاج) و (٤٧ جذراً رباعياً فى القرآن) ، وأما الجذور الخماسية فلا تذكر لها نسبة ، فهى فى حدود ٠,٣٪ .

فهل معنى ذلك أن القرآن أهدر أربعة أخماس الثلاثيات ، أو ٨٥٪ من متن اللغة بعامة ؟!

للرد على هذا السؤال نقرر عدة نقاط :

١ـ أن اللغة بحر واسع ، ولا يمكن استيعاب البحر فى إناء ـ مهما تكن سعته .. مادى أو بشرى .

وبعبارة أخرى : من المستحيل أن يوجد فرد يحفظ اللغة ـ أية لغة ـ فضلاً عن العربية ـ بكل جذورها ومادتها .

ومن المستحيل أيضاً أن يستوعب كتاب واحد مادة لغة بأكملها .

٢ـ أن ما يحفظه الفرد المتكلم من مادة لغته مرتبط بظروفه البيئية والتعليمية ، واهتماماته العقلية والفنية .

وقد سمعنا من يقول : إن إجادة اللغة الإنجليزية لا تحتاج من طالبها سوى أن يحفظ قدراً من الكلمات والأدوات فى حدود (خمسمائة كلمة) مع إجادة تراكيبها واستعمالاتها .

وكذلك الحال فى العربية ، ، فكل منا لا يحفظ أكثر من (ألف جذر ـ فى أحسن الأحوال) ، وهو لا يستعملها كلها .. بل تتراوح نسبة الاستعمال من مجال لآخر ، تماماً كالعملية النقدية ، لا تخلو أيدينا غالباً من ورقة الجنيه والخمسة والعشرة ، وربما العشرين (جنيهاً) ، ولكن استعمال الورقة ذات الخمسين جنيهاً قليل ، وذات المائة جنيه أقل ، وأما (الباكو والأرنب) ، فلأهل الاختصاص والعلم والمال ، وقد يموت أناس ، ولا يحلمون بأن يروا شيئاً من هذا !!

كذلك الحال فى التعامل مع اللغة بكُلِّها .. إبحار فى محيط مترامى الشواطىء والبرور، فى حين أن الاكتفاء بجدول أو نهر ـ يغنى كثيراً .. بل وقد يغرقنا لغة ومعرفة !!

ومن هنا يختلف الشعراء والأدباء عن اللغويين فى إحاطتهم باللغة ودروبها ، كما يتفاوت ما يعرفه رجل القانون عن عالم الكيمياء أو الفيزياء ، [وبين قوسين : (لم يعد لأهل العلم التجريبى أدنى علاقة بالعربية) وهى مأساة عصرنا] العربى المتخلف .

وقد يكون الرجل مدرساً للعربية ، ولا يعرف إلا القدر الضرورى ، فى حدود وظيفته ، وبقدر ما يحفظ من نصوص اللغة أو أمثلة النحو .

ولا ريب أن حفظ القرآن والأحاديث النبوية ، والتراث الشعري والنثرى ـ كل ذلك يعتبر مدداً رائعاً من مادة اللغة ، يثرى المعرفة اللغوية ، ولكن ذلك كله لا يتضمن كل جذور اللغة ، ولا يغطى مساحتها .

٣ـ ونأتى إلى القدر الذى استخدمه القرآن من جذور اللغة ، وهو قدر يبدو الآن لنا غير هين ، وقد استوعب معانى الرسالة الخالدة .. رسالة الإسلام الحنيف التى هيمنت على الحياة كلها ، واستوعبت كل أحداثها ، ورسمت منهج

الارتقاء والتحضر للنهوض بهذه الأمة ، وجعلها سيدة العالمين .

ثم إن لغة القرآن قد استولت على ألسن الجماعة اللغوية ، على تراحيبها واتساعها وامتدادها ، حتى أصبحت الأنموذج الأمثل الذى يحاكيه البلغاء ، ويقتدى به الأدباء والشعراء ، ويجرى فى مضماره المتنافسون ، ويحفظه الصغار والكبار ، ومن ثمّ دخلت بقية اللغة بجذورها ومادتها فى غياهب المجهول ، وطوتها المعاجم اللغوية ، فصارت لغة القرآن هى الأفصح والأمثل ، وصار غيرها هو الأغرب والأعجم . وبذلك نستطيع أن نقرر أن ما بين أيدينا من لغة عربية هو فى الحقيقة عربية القرآن التى يقاس إليها تفوق السابق ، وعجز المقصر ، فإذا راقنا أسلوب أديب قلنا : إنه قرآنى التراكيب ، متمثل بمستوى القرآن الأرفع ، وإذا زاغ عن هذا المستوى هبط فى أعيننا وانزوى .

وقد ظهر تأثير القرآن على الألسنة منذ الجيل الأول ، جيل الصحابة ، فإن ما صدر عنهم ، ونسب إليهم لا يمكن أن يقارن بما روى عن الجيل السابق عليهم ، هذا نمط وذاك نمط آخر ، ولننظر إلى النموذجين الآتيين ، أحدهما جاهلى ، والآخر إسلامى ، لنرى بالمقارنة عمق التأثير القرآنى فى ألسنة القائلين ، والنصان مرتجلان فى الموقفين .

النص الأول

كان مرثد الخير بن ينكف قيلاً ، وكان حدباً على عشيرته محباً لصلاحهم ، وكان سبيع بن الحارث ، وميثم بن مثوّب تنازعا الشرف حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حييهما شر ، فيتفانى جذماهما ، فبعث إليهما مرثد الخير ليصلح بينهما ، فقال لهما :

« إن التخبط ، وامتطاء الهجاج ، واستحقاب اللجاج ، سيقفكما على شفا هوّة ، فى توردها بوار الأصيلة ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل

انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السُّهْمة ، وأنتما فى فسحة رافهة ، وقدم واطدة ، والمودة مثرية ، والبقيا معرضة .

فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيُّور أمورهم ، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأى ، واستحقاب الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء ، استحكمت الشحناء ، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت عرى الإبقاء ، وشمل البلاء » [جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة / ص٥] .

النص الثانى

« عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : دخلت يوماً على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فى علته التى مات منها ، فقلت له : أراك بارئاً ياخليفة رسول الله ﷺ ، فقال : أما إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى ، إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلكم وَرِمَ أنفه أن يكون له الأمر من دونه ، والله لتتخذُنّ نضائد الديباج ، وستور الحرير ، ولتألَمُنّ النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان ، والذى نفسى بيده لأن يقدّم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادى الطريق جُرْتَ ، إنما هو والله الفجر أو البحر » .

فقلت : خفّض عليك يا خليفة رسول الله ﷺ ، فإن هذا يهيضك إلى ما بك ، فوالله مازلت صالحاً مصلحاً لا تأس على شىء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً » [الكامل للمبرد / ص٥ ــ الطبعة الأولى ١٣٠٨هـ] .

ويكفى أن نقرأ النص الأول لنجد فيه كثيراً من العقبات التى تعوق الفهم ، من كلمات غريبة ، وجمل قصار غامضة مسجوعة فى حين نجد النص الثانى يدور حول مجموعة من المعانى الدينية التى تتصل بالدنيا والآخرة ، وتأخذ من ألفاظ القرآن ومعانى النبوة ، وتطول الجمل لتؤدى مجموعة المضامين التى أراد أبو بكر أن يؤديها لتبلغ أسماع الدنيا ، وتحمل إليها صورة مشرقة لعربية القرآن على لسان الجيل الأول ، وهو الجيل الذى عاش أكثر من نصف حياته فى الجاهلية .

بقية المادة القرآنية

فى القرآن - غير الجذور الاشتقاقية مجموعات من الألفاظ الجوامد على النحو التالى :

١- أسماء وأعلام غير مشتقة من أصل عربى : وفى القرآن عدد من هذه الأسماء بلغت عدته اثنين وخمسين اسماً ، أولها لفظ الجلالة (الله) ، وأرجح الأقوال وأصحها أنه غير مشتق من أى جذر لغوى ، وأنه ينطق كما سمى الله به نفسه .

ويخيل إلىّ - والله أعلم - أن أداة التعريف (الـ) هى جزء من لفظ الجلالة ، وأن التصاق هذا الجزء بالكلمة يعنى أنها معرفة بنسبتها إلى خالق الدال والمدلول ، وأن المجرد من (الـ) هو نكرة ، محروم من النسبة التى يشرف بها لو حصّلها ، بصرف النظر عن تناسى هذا المعنى فيما بعد .

أما بقية الأسماء فأغلبها أعجمى ، سواء أكان من أسماء الأشخاص ، مثل إبراهيم ، وإسرائيل ، وإسماعيل ، وإلياس ، وأيوب ، وإسحاق ، وإدريس ، أم من أسماء الأشياء ، مثل :بابل ، وإستبرق ، وتابوت ، وتوراة ، وجهنم ، وزنجبيل ، ويجد القارئ مجموعة هذه الأسماء فى آخر الجذور ، وليس من المفيد الادعاء بأن لهذه الأسماء جذوراً تؤخذ منها فى العربية .

٢ـ ظروف وأدوات مبنية ، ومجموعها أربع وخمسون أداة ـ مذكورة فى نهاية الجذور .

٣ـ فواتح السور ، وهي ثلاثة عشر شكلاً ، فى بداية تسع وعشرين سورة .. هى على الترتيب :

البقرة ـ آل عمران ـ الأعراف ـ يونس ـ هود ـ يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم ـ الحجر ـ مريم ـ طه ـ الشعراء ـ النمل ـ القصص ـ العنكبوت ـ الروم ـ لقمان ـ السجدة ـ يس ـ ص ـ غافر ـ فصلت ـ الشورى ـ الزخرف ـ الدخان ـ الجاثية ـ الأحقاف ـ ق ـ ن .

وأشكال الفواتح هى :

ا ل ر (الر) ـ ا ل م (الم) ـ ا ل م ر (المر) ـ ا ل م ص (المص) ـ ح م (حم) ـ ط س (طس) ـ ط س م (طسم) ـ ط هـ (طه) ـ ع س ق (عسق) ـ ق ـ ك هـ ى ع ص (كهيعص) ـ ى س (يس) ـ ن .

وفواتح السور من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، فلم يتضمن القرآن حرفاً إلا وله حكمة يعلمها منزّله سبحانه ، وقد اجتهد العلماء فى معرفة المراد بهذه الحروف ، فساقوا تفسيرات متعددة ، أهمها فى نظرنا ما قاله بعض المعاصرين من أن هذه الحروف بمثابة الجرس فى مطلع السورة لتنبيه المخاطبين إلى أن هذا الكلام مكون من حروف كهذه الحروف التى يتكون منها كلامكم ، ومع ذلك يبقى الكلام الذى جاء به محمد معجزاً لكم ، لا تستطيعون أن تأتوا بمثله ، أو بسورة منه ـ فهو أسلوب تحد يوظف فاتحة السورة لأداء هذا المعنى الوظيفى .

ولا يبقى بعد ما سقناه من مادة القرآن سوى حروف الجر والعطف والأدوات التابعة للأسماء والأفعال ، ولا علاقة لها بقضية الجذور .



على أن هناك بقية تزيد الموضوع وضوحاً وثبوتاً ، فإن تأثير القرآن وهيمنته على العقل واللسان العربى لم يقتصر على جيل الصحابة ، أو حتى أجيال السلف الذين ارتبطوا بالقرآن وثقافته ، بل لقد صار هو القانون الحاكم للسان العربى فى كل الأجيال ، وفى جميع البلدان التى تنطق العربية ، وهو حكم بلغ درجة الدكتاتورية ، بحيث لم يفته إلا القليل القليل .

ولسوف نقدم دليلاً موجزاً ، ولكنه ذو دلالة عميقة على ما نقول من أن اللسان العربى قد وقع فى إسار عربية القرآن ، واستسلم لها قريراً راضياً ، بل لقد أصبح ولا خيار له خارج هذه اللغة إلا فى النادر القليل من لغة ما قبل القرآن ، ليس تعصباً ، أو تجاوزاً ، أو مبالغة ..

لقد وقع اختيارنا على نص من كتاب (حديث الأربعاء) للدكتور طه حسين ، وفيه يتحدث المؤلف عن الشعر القديم ، فى مقدمة لدراسة الشعر الغزلى ، والنص يشغل قريباً من خمس صفحات من أول الجزء الأول ص ٩-١٣ ، وقد استخرجنا الجذور التى بنى عليها هذا النص ، فلم يرد فيها سوى قليل جداً من الجذور المستعملة فى الجاهلية ، وهذا هو النص :

أثناء قراءة الشعر القديم

قال صاحبى وهو يحاورنى : إنكم لَتَشُقُّون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه ، وحفظه وتذوقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً ، وتلغونه إلغاء ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها ، ونستطيع أن نأتى من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتون ، وأن نحس كما كانوا يحسون ، ونشعر كما كانوا يشعرون ، ونفهم من أجل ذلك ونذوق ما كانوا يقولون ، وأنتم مع ذلك تقرءون التاريخ وتدرسونه ، وكيف يستقيم لكم درس الأدب إذا لم تقيموه على إتقان التاريخ والعلم به ؟ فأنتم إذن تعرفون أن حياتنا غير حياة هؤلاء الناس ، وأن

أطوارنا غير أطوارهم ، وأن الصلة قد انقطعت أو كادت تنقطع بينهم وبيننا ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث ، وحمل إلينا الحضارة الحديثة ، وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء ، وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا ، وجعل الأسباب بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب ، أدنى من الأسباب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز . فنحن ياسيدى نتعلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية فنتقنها أحياناً ، ويتاح لنا أن نقرأ الشيء الكثير أو القليل من آثار الشعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان ، فنفهم ما نقرأ ونتذوقه ، ونجد فيه لذة ومتاعاً ، وغذاء للعقول والقلوب ؛ لا نحس بيننا وبين هؤلاء الشعراء من بعد الأمد ، واختلاف الطبع والذوق والمزاج ، مثل ما نحس بيننا وبين أصحاب شعركم هذا القديم ، لأننا نحيا حياةً تقارب حياةَ الشعراء الأوروبيين ، لأننا نستمد علمنا وأدبنا وفننا فى هذه الأيام من الينابيع نفسها / التى يستمد منها الشعراء الأوروبيون علمهم وأدبهم وفنهم ، ولأن اتصال الأمر بيننا وبينهم على هذا النحو يدنينا منهم ، ويقرب أدبهم إلينا ، ويحدث بيننا وبينهم صلات يسيرة هينة ، لا مشقة فيها ولا جهد ، والأيام كلما مضت واتصلت زادت البعد بيننا وبين شعرائكم هؤلاء القدماء ، والحياة كلما تطورت وتحولت زادت فى تغيير طبائعنا ، وفى تغريبنا ، إن صح هذا التعبير ، فكيف تريدوننا على أن نجد فى هذا الشعر القديم من اللذة والمتاع ما نبحث عنه فلا نظفر به ؟ وكيف تريدون أن تفرضوا علينا عناء البحث عما لا سبيل إليه ، والدرس لما لا نفع فى درسه ، والحفظ لكلام لا تسيغه أفواهنا حين تنطق به ، ولا تقبله آذاننا حين يلقى إليها ، ولا يصل إلى نفوسنا بحال من الأحوال ؟ إنكم لتضيعون وقتكم ووقتنا فى غير نفع ، وإنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروباً من الجهد العنيف فى غير طائل ، ولو أنكم تقدّرون الوقت ، وتعرفون للجهد الإنسانى قيمته ، لوضعتم شعركم القديم هذا حيث أرادت الحياة أن تضعه ، فقصرتم درسه وفهمه وتفسيره على هؤلاء العلماء الإخصائيين ، الذين يفرغون لما يلائم ذوقهم من

ضروب العلم ، فيعنون به ، وينفقون جهودهم فيه ، يبتغون لذتهم الخاصة ، ويبتغون ما يسمونه خدمة العلم ، وإحياء التاريخ ، وما ينبغى لأحد أن يلوم رجلاً فى العناية بالشعر الجاهلى ، أو يصده عن هذه العناية ، ما دام فى الناس من ينفق الوقت والجهد والمال فى جمع طوابع البريد وما يشبهها من هذه السخافات ، التى يتهالك على جمعها أصحاب الثراء والدعة والفراغ . رفقاً بالشباب ، لاتفرضوا عليهم الترف فرضاً ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ولا تأخذوهم بما تحبون أن تأخذوا به أنفسكم ، فإن الإغراق فى نوع من أنواع التخصص خروج عما ألف الناس ، وما ينبغى أن يخرج الناس جميعاً عما ألف الناس .

لا تفرضوا شعركم الجاهلى ، بل شعركم القديم ، على الطلاب والتلاميذ ؛ فليس هذا الشعر منهم ، وليسوا هم من هذا الشعر فى شىء . علموهم ما يستطيعون أن يتعلموا ، وخذوهم بحفظ ما يستطيعون أن يحفظوا ، ولا تفسدوا عقولهم وأذواقهم بتكليفهم ما لا يطيقون .

وكان صاحبى يقول هذا كله فى صوت حازم ، ولهجة حادة ، وحماسة تكاد تبلغ العنف ، ونشاط لم يقتصر على نفسه المفكرة العاقلة ، وإنما تجاوزها إلى جسمه أيضاً ، فكان كثير الحركة والاضطراب : يقوم ويقعد ، ويتلفت إلى يمين وإلى شمال ، ويحرك يديه وذراعيه حركات عنيفة مختلفة ، كأنه كان خطيباً يريد أن يقهر الجماهير .

ولست أخفى عليك أنى أنفقت كثيراً من الجهد ، وتكلفت كثيراً من العناء ، لأرده إلى شىء من الهدوء ولأقنعه بأن من حقه أن يقول ، ولكن من الحق عليه أن يسمع ، وأكاد أعترف بأنى يئست من حمله على الصمت والاستماع ، ولولا أنى انصرفت عنه ، وهممت بفراقه ، لما اتصل بينه وبينى الحديث فى هذا الموضوع .

ذلك أنه مخلص كل الإخلاص فى بغض هذا الشعر القديم المسكين ،

ويظهر أن بينه وبين هذا الشعر ثأراً ، فهو قد كان يلتمس مثله الأدبيّ الأعلى أوّل أمره عند القدماء من العرب ، وكان في هذا متأثراً بغيره من المثقفين والممتازين ، وهو قد قرأ بعض الشعر العربي القديم في ديوان الحماسة وغير ديوان الحماسة من كتب المختارات ، ففهم وتذوّق ولكنه لم يرض ! فاستزاد وأكثر القراءة وأراد أن يتعمق الدرس ، وتجاوز الحماسة وأمثالها من الكتب اليسيرة إلى كتب أخرى ، أقل يسراً وأشد إمعاناً في المذهب العربي الخالص في الشعر ، فأخذ ينظر في الأراجيز والمفضليات ومطوّلات الجاهليين ، ونقائض الفرزدق والأخطل وجرير ، ولكنه لم يكد يمضي في هذا النظر حتى قامت أمامه صعاب وعقاب ، لم يجد إلى تذليلها من سبيل ، فألفاظ ضخمة تنبو عنها أذنه وتستغلق معانيها عليه ، فإذا حاول فهمها لجأ إلى الشروح والمعاجم ، فإذا هذه الشروح والمعاجم مضطربة ، شديدة الاختلاط ، كثيرة الاستطراد ، وإذاً ففهمها ليس أدنى إليه ، ولا أيسر عليه ، من فهم النص الشعرى الذى يلتمس تأويله وتفسيره . وقد وقع المسكين على شرح ابن الأنبارى للمفضليات ، فضلّ ضلالاً بعيداً في هذا الكلام الكثير الذى تختلط فيه الروايات والأقاويل ، ومسائل النحو ، ومذاهب اللغويين ، ثم وقع على النقائض ، فلم يكن ضلاله قريباً ، وإنما كان بعيداً كل البعد ، يبدأ القصة فلا يعرف كيف تنتهي ، لأنه لا يكاد يتقدم خطوة أو خطوتين حتى يجد نفسه قد دفع إلى قصة أخرى ، ولا يكاد يمضي في هذه القصة الثانية حتى يدفع إلى قصة ثالثة ، وهو لا يكاد يمضى فى هذه ولا تلك حتى يجد الشعر يروى من هنا وهناك ، وهو قد ركب بعضه بعضاً ، واختلط بعضه ببعض ، ولم تقم في الصحراء أو فى هذه الغابات أعلام يهتدى بها إن مضى ، ويعتمد عليها إن رجع ، فأعرض عن الكتابين إعراضاً ، ويئس من الأدب القديم يأساً ، والتمس من كتب المحدثين ما يقرب إليه هذا الأدب النافر ، ويذلل له هذا الفن الجامح ، فلم يجد شيئاً ، هنالك فزع إلى الأوربيين ، فوجد من أدبهم ومن نظامه الذى يقربه وييسره ما أرضاه ، فأصبح مبغضاً للأدب القديم

بطبعه ، محبا للأدب الأجنبى أعظم الحب . ثم ذكر أن الأدب القديم كان يفرض عليه فى المدرسة فيحمله من المشقة ما لا يطيق ، ويبغض إليه المدرسية تبغيضاً ، ونظر فإذا الطلاب والتلاميذ ما يزالون يشقون بمثل ما كان يشقى به ، ويجاهدون فى مثل ما كان يجاهد فيه ، وينتهون إلى مثل ما كان انتهى إليه من العناء واليأس والإخفاق . فأصبح لا يطيق حديثاً عن الشعر القديم ، ولا يطيق التفكير فى أنه شىء يمكن أن يدرسه الشباب ، أو يفرغ له غير هؤلاء المجانين ، الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس علماء .

وقد أطلت الحوار مع صاحبى فلم أظفر منه بشىء ، لأن انصرافه عن الشعر القديم ، قد أصبح علة ، قد استقرت فى نفسه استقراراً ، تؤذيه كل الإيذاء ، وليس فى شفائها أمل ، ولا إلى إنقاذه منها سبيل ، وقد تحدث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، لأنها ، كما قال صاحبى ، تباعد بينهم وبين حياة القدماء . والناس مفتونون بالسهل ، متهالكون على القريب ، يكرهون الجهد ، ويفرّون من التعب . والحضارة الحديثة تغريهم بهذا ، فهم لا يمشون إذا استطاعوا الركوب ، وهم لا يتخذون القطار والسفينة إذا استطاعوا اتخاذ الطيارة . وهم يجدون فى الأدب الأجنبى الحديث ما يرضيهم ، فإن أرادوا اللذة الفنية ظفروا بها ، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه ، وإن أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا فى ذلك جهداً ولا عناء .

ومع أن الجهود التى بذلت فى هذا العصر الحديث لإحياء الأدب العربى القديم لا بأس بها ، فقد يجب أن نعترف بأنها لم تغن عن هذا الأدب القديم شيئاً ، لأن الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم ، فهى تسعى إلينا وتبلغنا من كل وجه ، وهى تلح علينا إلحاحاً فى جميع أطوار حياتنا ، وإنتاجها الأدبى لا ينقطع ، فهو يغمرنا بكثرته ، ويغرينا باختلافه ،

ويفتننا بسحره ، ويصرفنا عن هذا الأدب القديم ، الذى لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئاً قد أثقلته القرون ، وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتى يتعثر فى هذه العقبات التى تبثها الحضارة الحديثة أمامه ،والتى يتصل بعضها بالعلم ، وبعضها بالجهل ، وبعضها بالذوق المترف الرقيق ، وبعضها بالذوق الخشن الغليظ ، وبعضها بما شئت وما لم تشأ من هذه الخطوب ، التى تفرضها الحضارة الحديثة علينا فرضاً ، فتصرفنا عن كل ما يحتاج إلى الجهد والرواية والأناة . ومعنى ذلك أن الأدب القديم صائر ، إذا مضت الأمور على هذا النحو الذى تمضى عليه ، إلى أن يصبح لوناً من ألوان الترف ، لا يعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص فى بعض الفنون ، ومع ذلك نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ هذا العصر الحديث كما كان من قبل ، ضرورة من ضرورات الحياة العقلية ، وأساساً من أسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب .

***

جذور النص

الألف/ أ و ل / أ ت ى / أ م ر / أ هـ ل / أ ر خ / أ د ب / أ ن س /
أ ث ر / أ د م / أ ذ ن / أ خ ذ / أ ل ف / أ ى ض / أ م م / أ ذ ى / أ م ل
/ أ ن و / أ م س /

الباء / ب ى ن / ب ع د / ب ح ث / ب غ و / ب ر د / ب ل غ /
ب غ ض / ب د أ / ب ع ض / ب ذ ل / ب أ س / ب ط أ /
ب ث ث /

التاء / ت ق ن / ت ى ح / ت ر ف / ت ع ب /

الثاء / ث ر و / ث أ ر / ث ق ف / ث ن ى / ث ل ث / ث ق ل /

الجيم / ج ع ل / ج هـ د / ج هـ ل / ج م ع / ج و ز / ج س م /
ج م ح / ج ن ب / ج ن ن / ج ر ر /

الحاء / ح و ر / ح ف ظ / ح س ب / ح س س / ح ى ى / ح د ث /
ح م ل / ح ض ر / ح ج ز / ح ى ن / ح و ل / ح ب ب / ح ز م /
ح د د / ح م س / ح ر ك / ح ق ق / ح ب ب / ح و ل / ح و ج /

الخاء / خ ل ف / خ ص و / خ ص ص / خ د م / خ ر ج / خ ط ب /
خ ف ى / خ ل ص / خ ى ر / خ ل ط / خ ط و / خ ف ق /
خ ش ن /

الدال / د ر س / د ن و / د و م / د و ن / د ف ع /

الذال / ذ و ق / ذ ر ع / ذ هـ ب / ذ ل ل / ذ ك ر /

الراء / ر و د / ر ج ل / ر ف ق / ر د د / ر ض و / ر ج ز / ر و ى / ر ك ب / ر ج ع / ر ق ق /

الزاى / ز م ن / ز ى د / ز و د / ز و ل /

السين / س ل ب / س ب ب / س ى د / س و غ / س م و / س خ ف / س م ع / س ك ن / س أ ل / س ب ل / س هـ ل / س ف ن / س ع ى / س ح ر /

الشين / ش ق ق / ش ع ر / ش ى أ / ش ب ب / ش م ل / ش د د / ش ر ح / ش ف ى /

الصاد / ص ح ب / ص ح ح / ص د د / ص و ت / ص م ت / ص ر ف / ص ع ب / ص ح ر / ص ب ح / ص و ر / ص ى ر /

الضاد / ض ى ع / ض ر ب / ض خ م / ض ل ل / ض ر ر /

الطاء / ط و ع / ط و ر / ط ب ع / ط و ل / ط و ق / ط ل ب / ط ر د / ط ى ر /

الظاء / ظ ف ر / ظ هـ ر / ظ ل ل /

العين / ع ى ب / ع ر ض / ع ى ش / ع ل م / ع ر ف / ع ص ر / ع ق ل / ع ب ر / ع ن و / ع ن ف / ع ن ى / ع ل و / ع ن د / ع ر ب / ع م ق / ع ق ب / ع ج م / ع م د / ع ظ م / ع ل ل / ع ث ر / ع ق ل /

الغين / غ ى ر / غ ر ب / غ ذ و / غ ر ق / غ ل ق / غ ى ب / غ ر ى

/ غ ن ى / غ ل ظ /

الفـاء / ف هـ م / ف رض / ف ك ر / ف ن ن / ف و هـ / ف س ر / ف ر غ / ف رق / ف ض ل / ف ز ع / ف ت ن / ف ر ر /

القـاف / ق و ل / ق رأ / ق دم / ق ص ر / ق ر ن / ق و م / ق ط ع / ق ب ل / ق ل ل / ق ل ب / ق ر ب / ق د ر / ق ع د / ق هـ ر / ق ن ع / ق ص ص / ق ر ر / ق ط ر /

الكـاف / ك ل ف / ك و ن / ك و د / ك ث ر / ك ل م / ك ت ب / ك ره /

اللام / ل ح ح / ل غ و / ل ذ ذ / ل ق ى / ل أ م / ل و م / ل هـ ج / ل ف ت / ل م س / ل ف ظ / ل ج أ / ل ى س / ل هـ و / ل و ن /

الميم / م ت ع / م ز ج / م ث ل / م د د / م ض ى / م ت ع / م و ل / م ى ز / م ع ن / م ض ى / م ش ى / م ل ك /

النون / ن ك ر / ن ج د / ن ب ع / ن ف س / ن ح و / ن ف ع / ن ط ق / ن ف ق / ن و ع / ن ش ط / ن ظ ر / ن ق ض / ن ب و / ن ص ص / ن هـ ى / ن ظ م / ن ق ذ / ن ت ج /

الهاء / هـ ج ر / هـ ى ن / هـ ل ك / هـ د أ / هـ م م / هـ د ى /

الـواو / و ص ل / و ج د / و ق ت / و ض ع / و ج د / و ق ع / و س ل / و ج هـ / و ف ر /

الياء / ى و م / ى س ر / ى م ن / ى د ى / ى أ س /

وفى النص كما نرى كلمات أجنبية ، أو ذات جذر رباعى وهى :

الإنجليزية/ والفرنسية والألمانية / الأوربيين/ تلاميذ /جماهير/ فرزدق / الأنبارى .

إن أديباً عظيماً مثل طه حسين يعتبر فى نظرنا أنموذجاً للغة العربية النقية ، وهو مع ذلك يتميز عن غيره من الأدباء بأن عبارته مرتجلة ، إذ هو يملى على من يكتب له ، ومعنى ذلك أن لغته لغة فطرية ، وأن عبارته عبارة تلقائية، وقد رأينا أن معجمه اللغوى يستمد من معجم القرآن ، بل إن مضمون هذا النص يدل على أن الأجيال الجديدة استبعدت لغة الشعر الجاهلى ، حين ابتعدت عن تعاطى ذلك الشعر ، طلباً للسهولة واليسر فى دراسة الشعر الحديث الذى تعايشه هذه الأجيال .

ولعلنا لو طبقنا هذا المنهج فى الدرس اللغوى على كتابات أخرى لأدباء من مختلف الطبقات التى تستخدم اللغة الفصحى ـ لو فعلنا ذلك لوجدنا أن النتيجة لم تتغير ، وأن طغيان مادة القرآن على أساليب الكتاب والشعراء أصبح قانوناً حاكماً لا مفر منه .

وقد أثرت هجرة الناس لشعر الجاهلية فى فهمهم للغته ، واستخدامهم لألفاظه ، فشحب وجودها شيئاً فشيئاً ، على حين أن لغة القرآن كانت وما زالت تطرق الأسماع ليل نهار ، بل ونجد أن العامة يحفظون من سور القرآن ما يقرءونه فى صلواتهم ، كما يحفظ المسلم المثقف بعض الآيات التى يتمثل بها فى المواقف المختلفة ، ناهيك عن أن يكون المسلم حافظاً للقرآن كله .

ونحب أن نؤكد هنا أن حفظ القرآن يوفر للحافظ أغزر مادة لغوية يجرى بها لسانه ، وينضبط بها نطقه للأصوات والكلمات ، والجمل المتصلة ، وقد أفاد من ذلك كل الأجيال المسلمة ، بدءاً بجيل الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد كان القرآن بالنسبة إليهم أعظم وسائل التقرب إلى الله ، ولو افترضنا أن ذلك الصحابى قد وجد قبل القرآن بزمن ـ فما كان له أن يجد فى البيئة اللغوية شيئاً يحفظه ، اللهم إلا بضعة أبيات من الشعر ، لو كان حريصاً على حفظ الشعر ، ومن هنا يعتبر القرآن أعظم جامعة لغوية صنعت العربية ،

وهذبتها ، وأطلقت الألسن بها ، حين انطلق الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ ينشرون الإسلام بنشر القرآن ، وتحفيظ المسلمين ، عرباً وعجماً ، آياته وسوره ، فكان نشر القرآن هدفاً عقائدياً ، إلى جانب كونه انتشاراً للغة الجديدة .. لغة النص القرآنى .

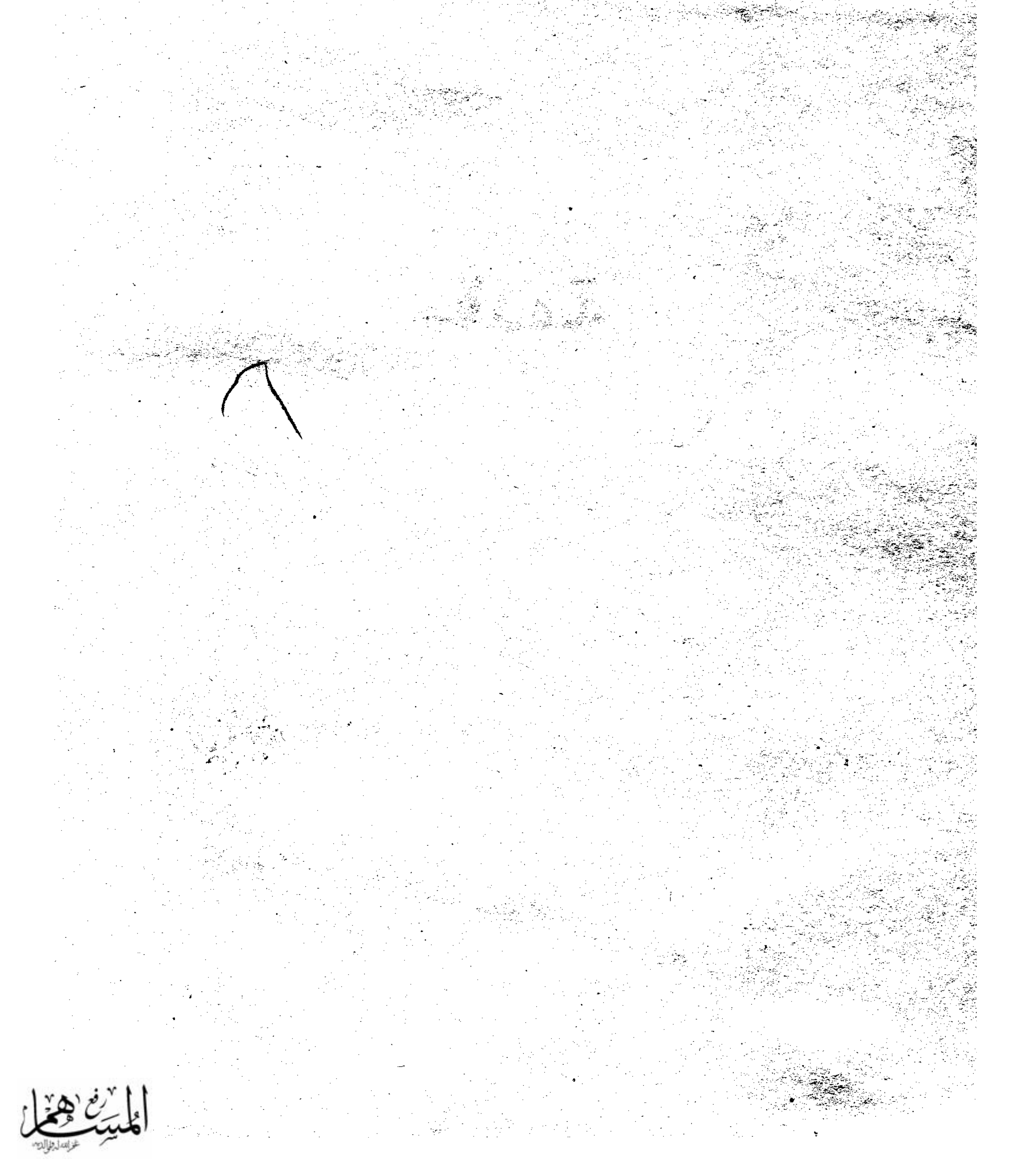
من أجل هذا كان العداء المرير فى نفوس العلمانيين للتعليم الذى يقوم على حفظ القرآن ، وللتربية التى تسير بمنهج القرآن .

وبدأت المؤسسات الماسونية المعادية تركز على نشر المنهج العلمانى الذى يقوم على تجفيف المنابع الدينية فى المجتمع ، وتفريغ النفوس من العقيدة ، واستبعاد حفظ القرآن أو جزء منه ، ولو لتحسين النطق الفصيح ، وترقية الأداة التعبيرية ، إلى جانب الترويج للعاميات ، والتركيز عليها ، وكل ذلك جزء من المخطط العام للحرب الصليبية المعاصرة .

* * *

ملحق بجذور القرآن





الألف جـ١

أ ب ب
أ ب د
أ ب ق
أ ب ل
أ ب و
أ ب ى
أ ت ى
أ ث ث
أ ث ر
أ ث ل
أ ث م
أ ج ج
أ ج ر
أ ج ل
أ ح د
أ خ ذ
أ خ ر
أ خ و
أ د د
أ د م
أ د ى
أ ذ ن
أ ذ ى
أ ر ب
أ ر ض
أ ر ك
أ ر م
أ ز ر
أ ز ز
أ ز ف
أ س ر
أ س س
أ س ف
أ س ن
أ س و
أ س ى
أ ش ر
أ ص ر
أ ص ل
أ ف ف
أ ف ق
أ ف ك
أ ف ل
أ ك ل
أ ل ت
أ ل ف
أ ل ل
أ ل هـ
أ ل و
أ م ت
أ م د
أ م ر
أ م س
أ م ل
أ م م
أ م ن
أ م و
أ ن ث
أ ن س
أ ن ف
أ ن م
أ ن و
أ ن ى
أ هـ ل
أ و ب
أ و د
أ و ل
أ و هـ
أ و ى
أ أ ى
أ ى د
أ ى م

الباء جـ٢

ب أ ر
ب أ س
ب ت ر
ب ت ك
ب ت ل
ب ث ث
ب ج س
ب ح ث
ب ح ر
ب خ س
ب خ ع
ب خ ل
ب د أ
ب د ر
ب د ع
ب د ل
ب د ن
ب د و
ب ذ ر
ب ر أ
ب ر ج
ب ر ح

ب ر د
ب ر ر
ب ر ز
(ب ر ز خ)
ب ر ص
ب ر ق
ب ر ك
ب ر م
(ب ر هـ ن)
ب ز غ
ب س ر
ب س س
ب س ط
ب س ق
ب س ل
ب س م
ب ش ر
ب ص ر
ب ص ل
ب ض ع
ب ط أ
ب ط ر
ب ط ش
ب ط ل

ب ط ن
ب ع ث
(ب ع ث ر)
ب ع د
ب ع ر
ب ع ض
ب ع ل
ب غ ت
ب غ ض
ب غ ل
ب غ ى
ب ق ر
ب ق ع
ب ق ل
ب ق ى
ب ك ر
ب ك ك (بكة)
ب ك م
ب ك ى
ب ل د
ب ل س
ب ل ع
ب ل غ
ب ل و

ب ن ن
ب ن و
ب ن ى
ب هـ ت
ب هـ ج
ب هـ ل
ب هـ م
ب و أ
ب و ب
ب و ر
ب و ل
ب ى ت
ب ى د
ب ى ض
ب ى ع
ب ى ن

التاء جـ ٢

ت ب ب
ت ب ر
ت ب ع
ت ج ر
ت ر ب
ت ر ف
ت ر ق
ت ر ك
ت س ع
ت ع س
ت ف ث
ت ق ن
ت ل ل (تله)
ت ل و
ت م م
ت ن ر
ت و ب
ت و ر
ت ى ن
ت ى هـ

الثاء جـ ٢

ث ب ت
ث ب ر
ث ب ط
ث ب و (ى)
ث ج ج
ث خ ن
ث ر ب
ث ر ى
ث ع ب
ث ق ب

ث ق ف
ث ق ل
ث ل ث
ث ل ل
ث م ر
ث م م
ث م ة
ث ن ى
ث و ب
ث و ر
ث و ى
ث ى ب

الجيم جـ ٣

ج أ ر
ج ب ب
ج ب ر
ج ب ل
ج ب ن
ج ب هـ
ج ب ى
ج و ب
ج ث ث
ج ث م
ج ث و
ج ح د
ج ح م
ج د ث
ج د د
ج د ر
ج د ل
ج ذ ذ
ج ذ ع
ج ذ و
ج ر ح
ج ر د
ج ر ر
ج ر ز
ج ر ع
ج ر ف
ج ر م
ج ر ى
ج ز أ
ج ز ع
ج ز ى
ج س د
ج س س
ج س م
ج ع ل
ج ف أ
ج ف ن
ج ف و
ج ل ب
ج ل د
ج ل س
ج ل ل
ج ل و
ج م ح
ج م د
ج م ع
ج م ل
ج م م
ج ن ب
ج ن ح
ج ن د
ج ن ف
ج ن ن
ج ن ى
ج هـ د
ج هـ ر
ج هـ ز
ج هـ ل
ج و ب
ج و د
ج و ر
ج و ز
ج و س
ج و ع
ج و ف
ج و و
ج ى أ
ج ى د

الحاء حـ ٣

ح ب ب
ح ب ر
ح ب س
ح ب ط
ح ب ك
ح ب ل
ح ت م
ح ث ث
ح ج ب
ح ج ج
ح ج ر
ح ج ز
ح د ب
ح د ث

ح د د
ح د ق
ح ذ ر
ح ر ب
ح ر ث
ح ر ج
ح ر د
ح ر ر
ح ر س
ح ر ص
ح ر ض
ح ر ف
ح ر ق
ح ر ك
ح ر م
ح ر ى
ح ز ب
ح ز ن
ح س ب
ح س د
ح س ر
ح س س
ح س م
ح س ن

ح ش ر
ح ص ب
(ح ص ح ص)
ح ص د
ح ص ر
ح ص ل
ح ص ن
ح ص ى
ح ض ر
ح ض ض
ح ط ب
ح ط ط
ح ط م
ح ظ ر
ح ظ ظ
ح ف د
ح ف ر
ح ف ظ
ح ف ف
ح ف و
ح ق ب
ح ق ف
ح ق ق
ح ك م

ح ل ف
ح ل ق
(ح ل ق م)
ح ل ل
ح ل م
ح ل ى
ح م أ
ح م د
ح م ر
ح م ل
ح م م
ح م ى
ح ن ث
(ح ن ج ر)
ح ن ذ
ح ن ف
ح ن ك
ح ن ن
ح و ب
ح و ت
ح و ج
ح و ذ
ح و ر
ح و ز

ح و ش
ح و ط
ح و ل
ح و ى
ح ى ث
ح ى د
ح ى ر
ح ى ص
ح ى ض
ح ى ف
ح ى ق
ح ى ن
ح ى ى

الخاء جـ ٣

خ ب أ
خ ب ت
خ ب ث
خ ب ر
خ ب ز
خ ب ط
خ ب ل
خ ب و
خ ت ر
خ ت م

خ د د
خ د ع
خ د ن
خ ذ ل
خ ر ب
خ ر ج
(خ ر د ل)
خ ر ر
خ ر ص
(خ ر ط م)
خ ر ق
خ ز ن
خ ز ى
خ س أ
خ س ر
خ س ف
خ ش ب
خ ش ع
خ ش ى
خ ص ص
خ ص ف
خ ص م
خ ض د
خ ض ر

خ ض ع
خ ط أ
خ ط ب
خ ط ط
خ ط ف
خ ط و
خ ف ت
خ ف ض
خ ف ف
خ ف ى
خ ل د
خ ل ص
خ ل ط
خ ل ع
خ ل ف
خ ل ق
خ ل ل
خ ل و
خ م د
خ م ر
خ م س
خ م ص
خ م ط
(خ ن ز ر)

خ ن س
خ ن ق
خ و ر
خ و ض
خ و ف
خ و ل
خ و ن
خ و ى
خ ى ب
خ ى ر
خ ى ط
خ ى ل
خ ى م
الدال جـ ٤
د أ ب
د ب ب
د ب ر
د ث ر
د ح ر
د ح ض
د ح و
د خ ر
د خ ل
د خ ن

د ر أ
د ر ج
د ر ر
د ر س
د ر ك
(د ر هـ م)
د ر ى
د س ر
د س س
د س و
د ع ع
د ع و
د ف أ
د ف ع
د ف ق
د ك ك
د ل ك
د ل ل
د ل و
(د م د م)
د م ر
د م ع
د م غ
د م ى

دنر
دنو
دهر
دهق
دهم
دهن
دهى
دور
دول
دوم
دون
دين

الذال جـ ٤

ذأب
ذأم
ذبب
ذبح
(ذبذب)
ذخر
ذرأ
ذرر
ذرع
ذرو
ذعن
ذقن
ذكر
ذكو
ذلل
ذمم
ذنب
ذهب
ذهل
ذود
ذوق
ذيع

الراء جـ ٣

رأس
رأف
رأى
ربب
ربح
ربص
ربط
ربع
ربو
رتع
رتق
رتل
رجأ
رجج
رجز
رجس
رجع
رجف
رجل
رجم
رجو
رحب
رحق
رحل
رحم
رخو
ردأ
ردد
ردف
ردم
ردي
رذل
رزق
رسخ
رسس
رسل
رسو
رشد
رصد
رصص
رضع
رضو
رطب
رعب
رعد
رعى
رغب
رغد
رغم
رفت
رفث
رفد
(رفرف)
رفع
رفق
رقب
رقد
رقق
رقم
رقى

رك ب
رك د
رك ز
رك س
رك ض
رك غ
رك م
رك ن
رم ح
رم د
رم ز
رم ض
رم م
رم ن
رم ى
رهـ ب
رهـ ط
رهـ ق
رهـ ن
رهـ و
روح
رى ح
رود
روض

روع
روغ
روم
رى ب
رى ش
رى ع
رى ن

الزاى جـ ٤

زب د
زب ر
زب ن
زج ج
زج ر
زج و
(زحزح)
زح ف
(زخرف)
زرب
زرع
زرق
زرى
زع م
زف ر
زف ف

زق م
زك و
(زلزل)
زل ف
زل ق
زل ل
زل م
زم ر
زم ل
(زمهر)
زن م
زن ى
زهـ د
زهـ ر
زهـ ق
زوج
زود
زور
زول
زى ت
زى د
زى غ
زول
زى ن

السين جـ ٥

س أل
س أم
س ب أ
س ب ب
س ب ت
س ب ح
س ب ط
س ب ع
س ب غ
س ب ق
س ب ل
س ت ت
س ت ر
س ج د
س ج ر
س ج ل
س ج ن
س ج و
س ح ب
س ح ت
س ح ر
س ح ق
س ح ل

س خ ر
س خ ط
س د د
س د ر
س د س
س د ى
س ر ب
(س ر ب ل)
س ر ج
س ر ح
س ر د
(س ر د ق)
س ر ر
س ر ع
س ر ف
س ر ق
(س ر م د)
س ر ى
س ط ح
س ط ر
س ط و
س ع د
س ع ر
س ع ى
س غ ب
س ف ح
س ف ر
س ف ع
س ف ك
س ف ل
س ف ن
س ف هـ
س ق ر
س ق ط
س ق ف
س ق م
س ق ى
س ك ب
س ك ت
س ك ر
س ك ن
س ل ب
س ل ح
س ل خ
(س ل س بيل)
(س ل س ل)
س ل ط
س ل ف
س ل ق
س ل ك
س ل ل
س ل م
س ل و
س م د
س م ر
س م ع
س م ك
س م م
س م ن
س م و
(س ن ب ل)
س ن د
س ن م
س ن ن
س ن هـ
س ن و
س هـ ر
س هـ ل
س هـ م
س هـ و
س و أ
س و ح
س و د
س و ر
س و ط
س و ع
س و غ
س و ف
س و ق
س و ل
س و م
س ى م
س و ى
س ى ب
س ى خ
س ى ر
س ى ل

الشين جـ ه

ش أ م
ش أ ن
ش ب هـ
ش ت ت
ش ت و
ش ج ر
ش ح ح
ش ح م

ش ح ن	ش ف و	ش و ك	ص ر ح
ش خ ص	ش ف ى	ش و ى	ص ر خ
ش د د	ش ق ق	ش ى أ	ص ر ر
ش ر ب	ش ق و	ش ى ب	(ص ر ص ر)
ش ر خ	ش ك ر	ش ى خ	ص ر ط
ش ر د	ش ك س	ش ى د	ص ر ع
(ش ر ذ م)	ش ك ك	ش ى ع	ص ر ف
ش ر ر	ش ك ل	**الصاد جـ ٦**	ص ر م
ش ر ط	ش ك و	ص ب أ	ص ع د
ش ر ع	(ش م أ ز)	ص ب ح	ص ع ر
ش ر ق	ش م ت	ص ب ر	ص ع ق
ش ر ك	ش م خ	ص ب ع	ص غ ر
ش ر ى	ش م ز	ص ب غ	ص غ و
ش ط أ	ش م س	ص ب و	ص ف ح
ش ط ر	ش م ل	ص ح ب	ص ف د
ش ط ط	ش ن أ	ص ح ف	ص ف ر
ش ط ن	ش هـ ب	ص خ خ	(ص ف ص ف)
ش ع ب	ش هـ د	ص خ ر	ص ف ف
ش ع ر	ش هـ ر	ص د د	ص ف ن
ش ع ل	ش هـ ق	ص د ر	ص ف و
ش غ ف	ش هـ و	ص د ع	ص ك ك
ش غ ل	ش و ب	ص د ف	ص ل ب
ش ف ع	ش و ر	ص د ق	ص ل ح
ش ف ق	ش و ظ	ص د ى	ص ل د

(ص ل ص ل)
ص ل و
ص ل ى
ص م ت
ص م د
ص م ع
ص م م
ص ن ع
ص ن م
ص ن و
ص هـ ر
ص و ب
ص و ت
ص ر ى
ص و ر
ص و ع
ص و ف
ص و م
ص ى ح
ص ى د
ص ى ر
ص ى ص
ص ى ف

الضاد جـ ٦

ض أ ز
ض أ ن
ض ب ح
ض ج ع
ض ح ك
ض ح و
ض د د
ض ر ب
ض ر ر
ض ر ع
ض ع ف
ض غ ث
ض غ ن
(ض ف د ع)
ض ل ل
ض م ر
ض م م
ض ن ك
ض ن ن
ض هـ أ
ض و أ
ض ى ر
ض ى ع
ض ى ف
ض ى ق

الطاء جـ ٦

ط ب ع
ط ب ق
ط ح و
ط ر ح
ط ر د
ط ر ف
ط ر ق
ط ر ى
ط ع م
ط ع ن
ط غ ى
ط ف أ
ط ف ف
ط ف ق
ط ف ل
ط ل ب
ط ل ح
ط ل ع
ط ل ق
ط ل ل
ط م ث
ط م س
ط م ع
ط م م
ط م ن
ط هـ ر
ط و د
ط و ر
ط و ع
ط و ف
ط و ق
ط و ل
ط و ى
ط ى ب
ط ى ر
ط ى ن

الظاء جـ ٦

ظ ع ن
ظ ف ر
ظ ل ل
ظ ل م
ظ م أ
ظ ن ن
ظ هـ ر

العين جـ ٧

ع ب أ

ع ب ث
ع ب د
ع ب ر
ع ب س
(ع ب ق ر)
ع ت ب
ع ت د
ع ت ق
ع ت ل
ع ت و
ع ث ر
ع ث و
ع ج ب
ع ج ز
ع ج ف
ع ج ل
ع ج م
ع د د
ع د س
ع د ل
ع د ن
ع د و
ع ذ ب
ع ذ ر

ع ر ب
ع ر ج
(ع ر ج ن)
ع ر ر
ع ر ش
ع ر ض
ع ر ف
ع ر م
ع ر و
ع ر ى
ع ز ب
ع ز ر
ع ز ز
ع ز ل
ع ز م
ع ز و
ع س ر
(ع س ع س)
ع س ل
ع س ى
ع ش ر
ع ش و
ع ش ى
ع ص ب

ع ص ر
ع ص ف
ع ص م
ع ص و
ع ص ى
ع ض د
ع ض ض
ع ض ل
ع ض هـ
ع ط ف
ع ط ل
ع ط و
ع ظ م
(ع ف ر ت)
ع ف ف
ع ف و
ع ق ب
ع ق د
ع ق ر
ع ق ل
ع ق م
ع ك ف
ع ل ق
ع ل م

ع ل ن
ع ل و
ع م د
ع م ر
ع م ق
ع م ل
ع م م
ع م هـ
ع م ى
ع ن ب
ع ن ت
ع ن د
ع ن ق
(ع ن ك ب)
ع ن و
ع هـ د
ع هـ ن
ع و ج
ع و د
ع و ذ
ع و ر
ع و ق
ع ف ف
ع و ل

ع و م	غ س ل	غ و ث	ف ح ش
ع و ن	غ ش ى	غ و ر	ف خ ر
ع ى ب	غ ص ب	غ و ص	ف د ى
ع ى ز	غ ص ص	غ و ط	ف ر ت
ع ى ش	غ ض ب	غ و ل	ف ر ث
ع ى ل	غ ض ض	غ و ى	ف ر ج
ع ى ن	غ ط ش	غ ى ب	ف ر ح
ع ى ى	غ ط ى	غ ى ث	ف ر د
الغين جـ ٧	غ ف ر	غ ى ر	(ف ر د س)
غ ب ر	غ ف ل	غ ى ض	ف ر ر
غ ب ن	غ ل ب	غ ى ظ	ف ر ش
غ ث و	غ ل ظ	**الفاء جـ ٨**	ف ر ض
غ د ر	غ ل ف	ف أ د	ف ر ط
غ د ق	غ ل ق	ف ت أ	ف ر ع
غ د و	غ ل ل	ف ت ح	(ف ر ع ن)
غ ر ب	غ ل م	ف ت ر	ف ر غ
غ ر و	غ ل و	ف ت ق	ف ر ق
غ ر ف	غ ل ى	ف ت ل	ف ر هـ
غ ر ق	غ م ر	ف ت ن	ف ر ى
غ ر م	غ م ز	ف ت و	ف ز ز
غ ر ى	غ م ض	ف ت ى	ف ز ع
غ ز ل	غ م م	ف ج ج	ف س ح
غ ز و	غ ن م	ف ج ر	ف س د
غ س ق	غ ن ى	ف ج و	ف س ر

ف س ق
ف ش ل
ف ص ح
ف ص ل
ف ص م
ف ض ح
ف ض ض
ف ض ل
ف ض و
ف ط ر
ف ظ ظ
ف ع ل
ف ق د
ف ق ر
ف ق ع
ف ق هـ
ف ك ر
ف ك ك
ف ك هـ
ف ل ح
ف ل ق
ف ل ك
ف ل ن
ف ن د
ف ن ن
ف ن ى
ف هـ م
ف و ت
ف و ج
ف و ر
ف و ز
ف و ض
ف و ق
ف و م
ف و هـ
ف ى أ
ف ى ض
ف ى ل

القاف جـ٨

ق ب ح
ق ب ر
ق ب س
ق ب ض
ق ب ل
ق ت ر
ق ت ل
ق ث أ
ق ح م
ق د ح
ق د د
ق د ر
ق د س
ق د م
ق د و
ق ذ ف
ق ر أ
ق ر ب
ق ر ح
ق ر د
ق ر ر
ق ر ش
ق ر ض
(ق ر ط س)
ق ر ع
ق ر ف
ق ر ن
ق ر و
ق س س
ق س ط
(ق س ط س)
ق س م
ق س و
(ق ش ع ر)
ق ص د
ق ص ر
ق ص ص
ق ص ف
ق ص م
ق ص و
ق ض ب
ق ض ض
ق ض ى
ق ط ر
(ق ن ط ر)
ق ط ط
ق ط ع
ق ط ف
(ق ط م ر)
ق ط ن (يقطين)
ق ع د
ق ع ر
ق ف ل
ق ف و
ق ل ب
ق ل د
ق ل ع

ق ل ل
ق ل م
ق ل و
ق م ح
ق م ر
ق م ص
(ق م ط ر)
ق م ع
ق م ل
ق ن ت
ق ن ط
ق ن ع
ق ن و
ق هـ ر
ق و ب
ق و ت
ق و س
ق و ع
ق و ل
ق و م
ق و ى
ق ى ض
ق ى ل

الكاف جـ ٩

ك أ س
ك ب ب
ك ب ت
ك ب د
ك ب ر
(ك ب ك ب)
ك ت ب
ك ت م
ك ث ب
ك ث ر
ك د ح
ك د ر
ك د و
ك ذ ب
ك ر ب
ك ر ر
ك ر س
ك ر م
ك ر هـ
ك س ب
ك س د
ك س ف
ك س ل
ك س و
ك ش ط
ك ش ف
ك ظ م
ك ع ب
ك ف أ
ك ف ت
ك ف ر
ك ف ف
ك ف ل
ك ف ى
ك ل أ
ك ل ب
ك ل ح
ك ل ف
ك ل ل
ك ل م
ك م ل
ك م م
ك م هـ
ك ن د
ك ن ز
ك ن س
ك ن ن
ك هـ ف
ك هـ ل
ك هـ ن
ك و ب
ك و د
ك و ر
(ك و ك ب)
ك و ن
ك و ى
ك ى د
ك ى ل

اللام جـ ٩

(ل أ ل أ)
ل ب ب
ل ب ث
ل ب د
ل ب س
ل ب ن
ل ج أ
ل ج ج
ل ح د
ل ح ف
ل ح ق
ل ح م
ل ح ن
ل ح و

ل د د	ل م ز	م ح ص	م س ى
ل د ن	ل م س	م ح ق	م ش ج
ل ذ ذ	ل م م	م ح ل	م ش ى
ل ز ب	ل هـ ب	م ح ن	م ص ر
ل ز م	ل هـ ث	م ح و	م ض غ
ل س ن	ل هـ م	م خ ر	م ض ى
ل ط ف	ل هـ و	م خ ض	م ط ر
ل ظ ى	ل و ح	م د د	م ط ط
ل ع ب	ل و ذ	م د ن	م ع ز
ل ع ن	ل و ط	م ر أ	م ع ن
ل غ ب	ل و م	م ر ج	م ع ى
ل غ و	ل و ن	م ر ح	م ق ت
ل ف ت	ل و ى	م ر د	م ك ث
ل ف ح	ل ى ت	م ر ر	م ك ر
ل ف ظ	ل ى س	م ر ض	م ك ك
ل ف ف	ل ى ل	م ر و	م ك ن
ل ف و	ل ى ن	م ز ج	م ك و
ل ق ب	**الميم ﺟـ ٩**	م ز ق	م ل أ
ل ق ح	م أ ى	م ز ن	م ل ح
ل ق ط	م ت ع	م س ح	م ل ق
ل ق ف	م ت ن	م س خ	م ل ك
ل ق م	م ث ل	م س د	م ل ل
ل ق ى	م ج د	م س س	م ل و
ل م ح	م ج س	م س ك	م ن ع

م ن ن
م ن ى
م هـ د
م هـ ل
م هـ ن
م و ت
م و ج
م و ر
م و ل
م و هـ
م ى د
م ى ر
م ى ز
م ى ل

النون جـ ١٠

ن أ ى
ن ب أ
ن ب ت
ن ب ذ
ن ب ز
ن ب ط
ن ب ع
ن ت ق
ن ث ر

ن ج د
ن ج س
ن ج م
ن ج و
ن ح ب
ن ح ت
ن ح ر
ن ح س
ن ح ل
ن خ ر
ن خ ل
ن د د
ن د م
ن د ى
ن ذ ر
ن ز ع
ن ز غ
ن ز ف
ن ز ل
ن س أ
ن س ب
ن س خ
ن س ر
ن س ف

ن س ك
ن س ل
ن س و
ن س ى
ن ش أ
ن ش ر
ن ش ز
ن ش ط
ن ص ب
ن ص ت
ن ص ح
ن ص ر
ن ص ف
ن ص و
ن ض ج
ن ض خ
ن ض د
ن ض ر
ن ط ح
ن ط ف
ن ط ق
ن ظ ر
ن ع ج
ن ع س

ن ع ق
ن ع ل
ن ع م
ن غ ض
ن ف ث
ن ف ح
ن ف خ
ن ف د
ن ف ذ
ن ف ر
ن ف س
ن ف ش
ن ف ع
ن ف ق
ن ف ل
ن ف ى
ن ق ب
ن ق ذ
ن ق ر
ن ق ص
ن ق ض
ن ق ع
ن ق م
ن ك ب

ن ك ث
ن ك ح
ن ك د
ن ك ر
ن ك س
ن ك ص
ن ك ف
ن ك ل
(ن م ر ق)
ن م ل
ن م م
ن هـ ج
ن هـ ر
ن هـ ى
ن و أ
ن و ب
ن و خ
ن و ر
ن و س
ن و ش
ن و ص
ن و ق
ن و م
ن و ن
ن و ى
ن ى ل

الهاء جـ ١٠

هـ ب أ
هـ ب ط
هـ ج د
هـ ج ر
هـ ج ع
هـ د د
(هـ د هـ د)
هـ د ى
هـ ر ب
هـ ر ع
هـ ز أ
هـ ز ز
هـ ز ل
هـ ز م
هـ ش ش
هـ ش م
هـ ض م
هـ ط ع
هـ ل ع
هـ ل ك
هـ ل ل
هـ م د
هـ م ر
هـ م ز
هـ م س
هـ م م
هـ م ن
هـ ن أ
هـ و د
هـ و ر
هـ و ن
هـ و ى
هـ ى أ
هـ ى ج
هـ ى ل
هـ ى م

الواو جـ ١٠

و أ د
و أ ل
و ب ر
و ب ق
و ب ل
و ت د
و ت ر
و ت ن
و ث ق
و ث ن
و ج ب
و ج د
و ج س
و ج ف
و ج ل
و ج هـ
و ح د
و ح ش
و ح ى
و د د
و د ع
و د ق
و د ى
و ذ ر
و ر ث
و ر د
و ر ق
و ر ى
و ز ر
و ز ع
و ز ن
و س ط

و س ع
و س ق
و س ل
و س م
و س ن
(و س و س)
و ش ى
و ص ب
و ص د
و ص ف
و ص ل
و ص ى
و ض ع
و ض ن
و ط أ
و ط ر
و ط ن
و ع د
و ع ظ
و ع ى
و ف د
و ف ر
و ف ض
و ف ق
و ف ى
و ق ب
و ق ت
و ق د
و ق ذ
و ق ر
و ق ع
و ق ف
و ق ى
و ك أ
و ك د
و ك ز
و ك ل
و ل ج
و ل د
و ل ى
و ن ى
و هـ ب
و هـ ج
و هـ ن
و هـ ى
و ى ل

الياء جـ ١٠

ى أ س
ى ب س
ى ت م
ى د ى
ى س ر
ى ق ظ
ى ق ن
ى م م
ى م ن
ى ن ع
ى و م

إحصاءات الجذور

	الثلاثى	ما فوق الثلاثى
الألف	٧٢	–
الباء	٨٣	٣
التاء	٢٠	–
الثاء	٢٢	–
الجيم	٦٨	–
الحاء	٩٦	٣
الخاء	٦٩	٢
الدال	٤٤	٢
الذال	٢١	١
الراء	٩٠	١
الزاى	٣٦	٤
السين	١٠٤	٦
الشين	٦١	٢
الصاد	٦٠	٣
الضاد	٢٤	١
الطاء	٣٦	–
الظاء	٧	–
العين	١٠٠	٥
الغين	٥٠	–

	الثلاثى	ما فوق الثلاثى
الفاء	٧٢	٢
القاف	٧٤	٦
الكاف	٥٦	٢
اللام	٥٤	١
الميم	٦٨	—
النون	١٠٦	١
الهاء	٣٥	١
الواو	٧٧	١
الياء	١١	—
المجموع	١٦١٦	٤٧

بقية الإحصاءات

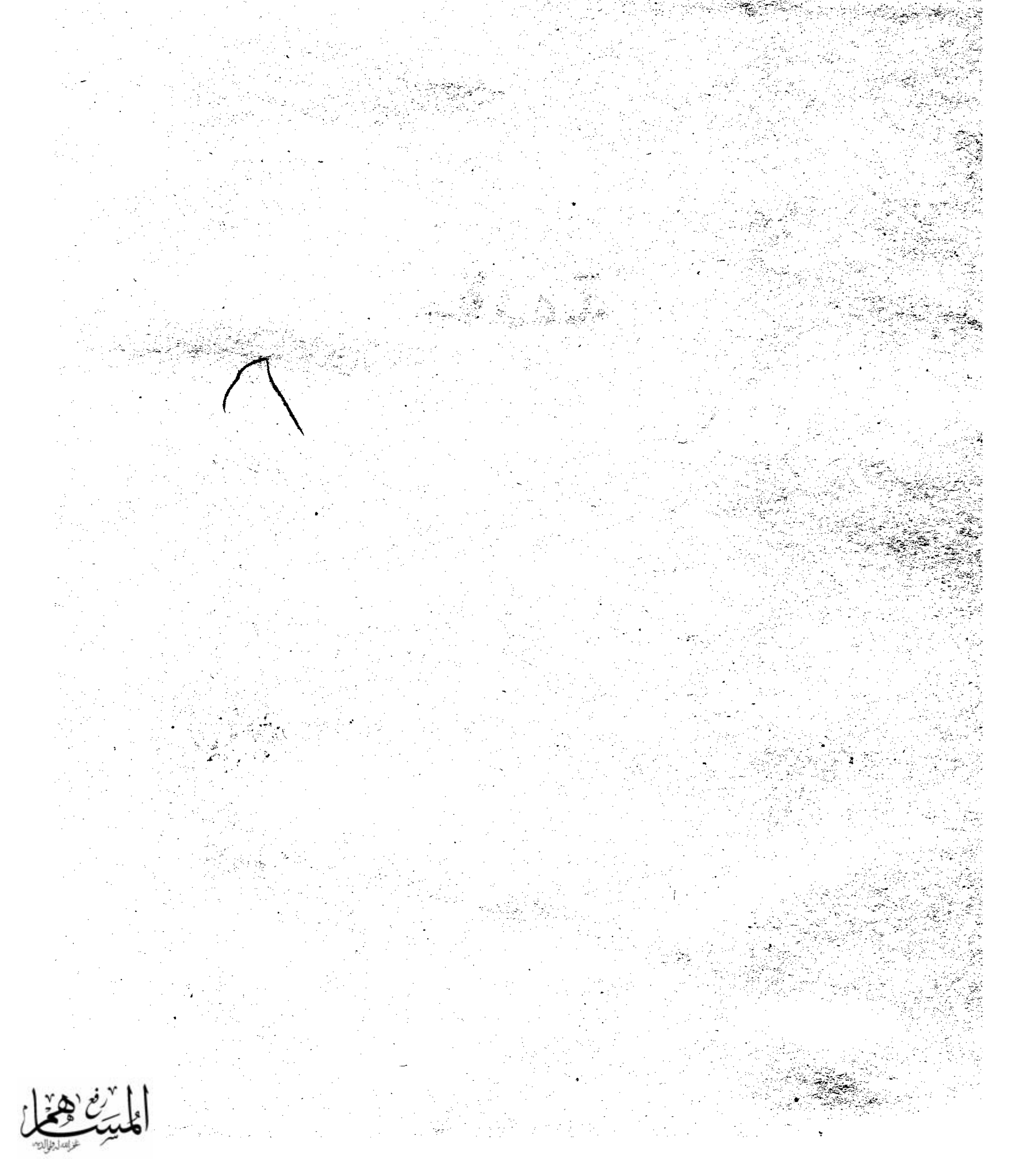
أ- ظروف وأدوات مبنية :

اللائى - اللاتى - اللـــذان - أنّى - أولــو - أولى - أولات - أولات - أولاء - هؤلاء - أولئك - أولائكم - إى - الآن - أيّان - أين - أينمــا - أىّ - أيتها - أيكم - أيما - أينا - أيّه - إيّا - بلى - تحت - تلك - تارة - ذو - ذات - كأيْن - كلتا - كى - كيف - لدى - لعل - لات - ليت - متى - مع - مهما - ها - هاؤم - هاتوا - هاتين - هذان - هكذا - ههنا - هلم - هنالك - هيت - هيهْ - هيهات - ويكأن .

ب- أسماء وأعلام غير مشتقة :

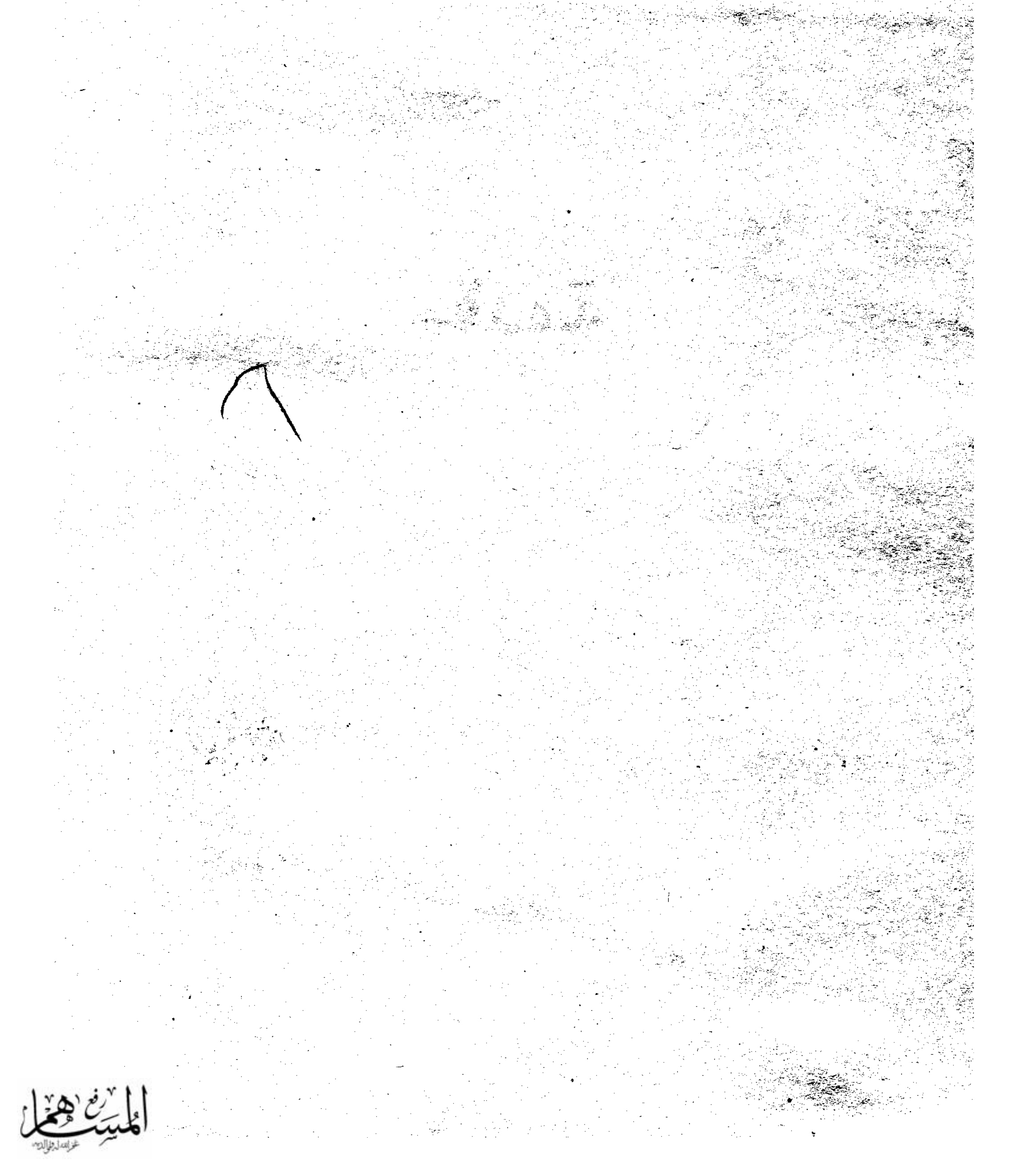
الله - إبراهيم - إسرائيل - إسماعيل - إلياس - أيوب - أيكه - إسحاق - إدريس - بابل - أباريق - استبرق - إبليس - إنجيل - تابوت - توراة - ثمود - جبت - جبريل - جالوت - جهنم - جودىّ - داود - زكريا - زنجبيل - سليمان - سندس - سينين - سيناء - طاغرت - طالوت - عاد - عيسى - قارون - قسورة - لقمان - اللات - مأجوج - ماروت - مريم - ميكال - موسى - هاروت - هارون - هامان - يثرب - يأجوج - اليسع - يعقوب - ياقوت - يوسف - يونس .





الفصل العاشر

أزمة العربية المعاصرة



لعلنا في هذه الدراسة نمس قضية أساسية فى حياة العرب المعاصرة ، فقد واجهوا حالة من الركود اللغوى ، تمثلت فى انعزال اللغة العربية عن مجالات الحياة الحضارية ، ذلك أن العلوم الرياضية والطبيعية ، والكيميائية ، والطبية وغيرها تمارس دراستها وتدريسها باللغة الإنجليزية ، وعبثاً يحاول المصلحون حتى الآن أن يغيروا من هذا الوضع المزرى ، وأن يبعثوا اللغة العربية على ألسنة أهلها من دارسى العلم الحديث ، وكأنما تقوم على استمرار هذا الوضع العجيب قوى خفية تحرص على إفشال كل محاولة لإحلال اللغة العربية محل اللغة الأوربية فى التدريس بالجامعات والمعاهد العليا .

من هذا الواقع العجيب يجب أن نبدأ مناقشة مشكلة اللغة العربية ، التى تبدو فى وضع متدهور حضارياً ، رغم أن القرآن الكريم موجود بين أيدى المسلمين ، ورغم أن القرآن قد سجل فى تاريخ الإنسانية حدثاً فريداً هو حفظ اللغة ، وتثبيت صورتها اللفظية ، والتركيبية على مدى القرون ، على حين لا يمكن أن ينهض بهذه المهمة فى تاريخ أية لغة إنسانية كتاب معين ، مهما يكن شأنه .

ولنأخذ على هذه الفكرة مثالاً واحداً من بين أمثلة كثيرة فى التاريخ ، فهذه اللغة الإغريقية التى كان يتكلمها القدماء قبل ميلاد المسيح ، قد كتب بها أهم نتاج الفكر الإغريقى ، على أيدى فلاسفة الإغريق ، من أمثال سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وغيرهم ، ولو أننا اعتبرنا أعمال هؤلاء الفلاسفة بمثابة كتاب مؤلف باللغة الإغريقية القديمة ، فإن صفحات هذا الكتاب سوف تبلغ

أضعاف صفحات القرآن الكريم ، ومع ذلك فإن هذه اللغة الإغريقية قد تغيرت تماماً ، وأصبحت هى واللاتينية فى عداد اللغات الميتة ، أما العربية فقد بقيت بما فى القرآن من « سر إلهى » هو أعظم تأثيراً من ثقافة البشر جميعاً ، بل إن من الممكن أن نزعم هنا أن القرآن هو الذى منح العربية ضبطها ، ونحوها ، وقواعدها ، وكفل لها الاستمرار والنماء ، فالعربية تدين بصورتها الكاملة للقرآن لا ريب .

وبرغم هذا نجد أن العربية قد انحدرت فى العصر الحديث حتى أصبحت فى عداد اللغات المتخلفة ، وحتى أصبح كل أمل العرب أن تعترف المنظمات والهيئات الدولية بلغتهم على أنها من اللغات الدولية ، وإن كان هذا الاعتراف لا يضيف جديداً إلى الوضع المتخلف الذى تعانيه اللغة العربية بين أهلها ، وداخل أوطانها ، وهو الوضع الذى سوف يستمر طالما بقيت العربية مبعدة عن مجالات العلم والتكنولوجيا ، وطالما اتخذ العلماء العرب لغة غيرها كوسيلة لتدريس العلوم بالجامعات العربية .

اللغة وأعداء الإسلام :

ومن الواجب أن نتساءل عن السبب الذى قاد اللغة العربية إلى هذا الوضع المتخلف ؟

والجواب بدهى ، يوحى به سياق هذا الحديث ؛ فإذا كان القرآن هو واهب الحياة لهذه اللغة على نحو ماتقرر ، فإن من الطبيعى أن تموت إذاما حيل بينها وبينه ، كما يموت الزرع إذا ما حرم الماء ، وكما يموت الكائن الحى إذا حبس عنه الهواء !

ولقد عرف الاستعمار هذا السر فعمل كل ما فى وسعه لإحداث الفصل بين الحياة العربية وبين (الإسلام) ، إذ كان قد جرب من قبل تجارب مريرة فى محاربة (القرآن) بصورة مباشرة ، فلم تسفر جهود المستشرقين المجندين

لذلك ، فى الطعن على القرآن وتشويه صورة رسول الله ﷺ إلا عن خذلان وفشل .

والواقع أن المساس بالقرآن أمام أى مسلم حتى لو كان ضعيف العقيدة واهى الإيمان ، يثير فى نفسه حمية واندفاعاً للذود عنه ، ومحاربة أعدائه .

فأما محاربة الإسلام تحت ستار المدنية أو التقدم أو التطور ، فتلك كلها دعاوى تجوز على الكثيرين ، ممن يحرصون على تحقيق هذه الأهداف ، فضلاً عمن يحاولون دائماً التوفيق بين مبادىء الإسلام وقضايا العصر الحديث .

ولعل فى مسلك الماركسية (سابقاً) داخل الوطن العربى ، بل وفى البلدان الإسلامية بعامة ـ ما يبرهن على صواب هذا التصور ، فلقد أدرك المخططون لمسيرة الماركسية فى الشرق أن أكبر عقبة تواجههم تتمثل فى هذا القرآن ، دستور الحركة الإسلامية ، ولما كان موقف الماركسية أساساً هو الإلحاد الصريح برفض مبدأ الألوهية ـ فقد كان ذلك الموقف حجر عثرة فى طريق تغلغلها فى قلوب الشباب وعقولهم ، ومن ثم كانت توجيهات الحزب الشيوعى آنذاك فى أى مكان لعملائه ألا يثيروا أى نقاش حول العقيدة ، وألا يصطدموا بمبدأ الإيمان بالله ، فيتركوا هذا الجانب بعيداً معزولاً عن المناقشة ، ثم عليهم أن يركزوا على قضايا المجتمع ، ومشكلات الاقتصاد التى يتقبل المسلم الجدل حولها ، وبذلك يقيمون جسوراً للتفاهم وتبادل الأفكار هى فى تقديرهم خطوة أولى نحو تقويض بناء العقيدة الإسلامية فى كيان الفرد المسلم متى استمر الحوار وتعمق التأثير .

ولذلك لا ندهش إذا وجدنا أن كثيراً من المشتغلين بقضايا النقد والمسرح ، والرقص والغناء من المنحلين عقائدياً ، أو المتعاطفين مع العلمانية ؛ لأن المخطط العلمانى يتجه دائماً إلى استخدام منهج (الإحلال) فى صراعه مع الأفكار الدينية ، وأعنى بذلك : أن تفريغ الفرد من معتقده يستلزم ملء هذا

الفراغ ببعض الأشياء التى يقع عليها دائماً اختيار الملاحدة ، كالرقص ، والموسيقى ، والمسرح ، وما إلى ذلك من الاهتمامات التى يرون أنها تشغل ساعات الحوار فى المجتمعات المدنية ، فإحلال هذه الاهتمامات محل الأفكار الدينية هو منهج متبع دائماً فى الصراع الفكرى ، وخير وسيلة إلى ذلك هى السيطرة على وسائل الإعلام المختلفة .

وكذلك لا ندهش إذا وجدنا أن أكثر الداعين إلى استخدام اللغة العامية فى الرواية ، وفى الأدب هم أيضاً من أصحاب الولاء للمذاهب الأوربية بأنواعها ، لأن النجاح فى هذه الدعوة يقوض صرح العلاقة بين المسلم وبين القرآن ، حين يستعجم لسانه ، وتصبح الفصحى القرآنية لغة أخرى أجنبية عنه ، وبمرور الزمن يختفى القرآن من حياة المجتمع الإسلامى ، ويتم لأعداء القرآن ما يريدون ـ وهيهات ، فالله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

وإذا كنا قد استخدمنا هذا المثال من حياتنا المعاصرة ، وفى صراعها مع أعداء الإسلام والقرآن ، فإن بداية الصراع كانت منذ عهد بعيد أسبق من الماركسية ، وحلفائها .. بدأت مع فجر الحركة الأوربية نحو الشرق للسيطرة على الوطن العربى الإسلامى .

***

جذور الدعوة إلى العامية

ولنحاول أن نلقى ضوءاً على تاريخ الدعوة إلى استخدام العامية ، وإحلالها محل العربية الفصحى ، لنعطى صورة للقارىء عن هذه الدعوة الخبيثة ، التى لا تستهدف أساساً سوى محاربة القرآن ، دستور الإسلام الخالد .

ونلفت نظر القارىء هنا إلى ثلاثة مصادر أساسية يمكن الرجوع إليها فى هذا الصدد :

أولها : كتاب الدكتورة نفوسة زكريا بعنوان (تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية ، وآثارها فى مصر) ، وهو مطبوع عدة طبعات ، أولاها عام ١٩٦٤ ، وهذا عن الجانب التاريخى .

ثانيها : كتاب (أباطيل وأسمار) الذى كان خلال عام ١٩٦٤ـ١٩٦٥ مجموعة من المقالات كتبها العالم المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر فى مجلة الرسالة ، التى كانت تصدرها وزارة الإرشاد القومى آنذاك ، وقد توخى الكاتب الكبير أن يدفع عن الإسلام والعربية غائلة بعض عملاء المبشرين ، من أمثال سلامة موسى ولويس عوض ومدرستهما ، ويستطيع القارىء لهذا الكتاب ، الذى طبع أيضاً عدة طبعات أن يدرك البعد السياسى ، والعقائدى لهذا الصراع بين دعاة العامية ودعاة الفصحى .

ثالثها : كتاب (الزحف على لغة القرآن) لأحمد عبد الغفور عطار ، وقد صدر فى بيروت عام ١٩٦٥ ، وقد أحسن مؤلفه أيضاً عرض القضية ، واستقصى جوانبها فى مصر ، وفى لبنان ، وفى سائر البلدان العربية ، كما تتبع سعى بعض أعداء الفصحى ، فى سِيَرهم ، وفى نشاطاتهم .

ولهذه القضية بداية يجب أن نطالع سطورها الأولى ، عندما انحسر المد الصليبي عن أرض الإسلام في المشرق العربي ، واقتنع عتاة الصليبيين بأنه لا أمل في قهر المسلمين .. لقد ظل هؤلاء الحاقدون يحملون بين جنوبهم ذكريات الحقد ، ونداءات الثأر ممن سحقوا جيوشهم ، وأذلوا ملوكهم ، ومرغوا تيجان أوربا في وحل الهزيمة بعد رد العدوان .

ولعل تلك الكلمة المأثورة عن الجنرال اللنبي قائد قوات الغزو الإنجليزى لفلسطين في أواخر الحرب العالمية الأولى ، تكشف عن مكنون هذا الحقد المتنقل من أصلاب الرجال ، إلى أرحام النساء ، في شعوب أوربا على اختلافها .. قال اللنبي عندما دخل القدس عام ١٩١٨ وقد وقف على أطلالها : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .. لقد قال ذلك بعد سبعة قرون من انتهاء آخر معاركها عام ١٢٩١ ميلادية .. أى : أن الحرب ظلت من الناحية التاريخية قائمة إلى أن أدرك الجنرال ثأره بدخول القدس ، وعودة الاحتلال الأوربى لها ، وهو الاحتلال الذى أخذ شكله الاستيطانى فيما بعد على يد الإنجليز حين مكنوا العصابات الصهيونية من أرض فلسطين ، وواصلوا بذلك معركة الاستعمار الصليبي ، في صورة تآمر مستمر بين الصليبيين واليهود في كل أنحاء العالم ، ضد العرب والإسلام .

وكذلك لا ندهش حين نجد جنرالاً آخر صهيونياً هو موسى ديان .. يقف عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، ليعلن أنه بهذا النصر الرخيص على الجيوش العربية قد ثأر لقتلى اليهود في يثرب وخيبر ، ودخلت الجيوش الصهيونية القدس مرة أخرى لتؤكد استمرار الثأر بينها وبين العرب والمسلمين !!

والمهم أن نلاحظ الطابع الدينى الذى تحمله الغزوة الصهيونية لفلسطين ، إلى جانب الشعار الدينى الذى حمله الصليبيون ، ليمكننا أن نفسّر تلك الصيحة التى أعلنها موتور آخر هو : وليم جيفورد بلجراف حين قال : « عندما يختفى

القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب فمن الممكن أن نرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !!

نعم : فذلكم هو الهدف النهائى لكل الغزوات التى توافرت على أرض الإسلام : أن يختفى القرآن ، وأن تزول مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ولعل من الملاحظات الواضحة لكل من يتابع قضية الصراع الفكرى بين المسلمين وخصومهم من المستشرقين ، أن نجد هؤلاء الذين يدعون النزاهة فى أحكامهم يعكفون على التنديد بفكرة « الدين والدولة » فى الإسلام ، ولا نجد أحداً منهم ينتقد هذه الفكرة فى اليهودية ، لأن قيام دولة يهودية على أساس الدين هو مما سعى إليه عتاة الصليبيين فى عصرنا ، من حيث إنه يمثل شوكة فى جنب الإسلام ، أو فى قلبه ، وهم يرون الإسلام عدواً تقليدياً لوجودهم الإرهابى .

ومعنى ذلك أن الذين تعادوا فى التاريخ وفى الواقع ، وهم اليهود والصليبيون ، قد اتحدوا الآن بكل معسكراتهم الإيديولوجية : رأسمالية ، وشيوعية ، وصهيونية ، لحرب الإسلام ، وتدمير المسلمين .

ويجب ألا ننسى أن إسرائيل قد حاربتنا ، وتحاربنا دائماً بجنود من المعسكر الشرقى السابق ، وأسلحة من الدول الرأسمالية ، فكأنها تمثل ذلك الحلف الشيطانى لتحطيم وجود المسلمين ، ولكل معسكر فى هذا الحلف أهداف يرجو تحقيقها من خلال إسرائيل .

فالصليبيون يريدون تحطيم الإسلام باعتباره دعوة التوحيد التى تلغى دعوة الشرك فى معتقداتهم ، وتنهى دولة الخرافة من وجود الدين !

والعلمانيون يريدون تحطيم الإسلام لنشر الإلحاد ، وتخريب الدين ، فهم يعتبرونه ـ بقياس غير علمى ـ أفيون الشعوب ، ووسيلة الأغنياء لاستغلال الكادحين !

والصهيونيون يريدون تحطيم الإسلام ليستمر لهم وجودهم فى فلسطين ،

وليتمكنوا من بسط سلطانهم على الأرض .. من الفرات إلى النيل !

لقد التقوا جميعاً على هدف واحد أساسى هو تحطيم « الإسلام » بأى ثمن ، وهكذا اتحد الأعداء .

ولكن السؤال الذى يرد فى هذا المجال هو : كيف يمكن تحطيم الإسلام ؟ وهل يمكن للجيوش الجرارة أن تحقق هذا الأمل ؟!

والجواب : قطعاً ليس هذا من مهمة الجيوش الجرارة ، بل إن العكس هو الصحيح ، فلقد أثبتت تجارب الحروب أن المسلمين يتحدون فى مواجهة الخطر ، وأن قوة الإسلام تذكو كلما أحس المسلمون بمؤامرات الأعداء القدماء .

وإذن فلابد من مخطط يقوض الإسلام من داخله .. تمهيداً لضرب المسلمين من الخارج .

نعم ، لا بد من إزالة القرآن ، وإزالة مكة من دنيا العرب والمسلمين ، ليمكن الاستيلاء على مقدراتهم ؟ وتدمير وجودهم الحضارى ، بعبارة وليم جيفور « لنرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة ، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » !!

وواضح أن (الحضارة) الموجودة فى كلمة هذا الصليبى الحاقد هى حضارة (الكنيسة) الأوربية ، التى ترى أن وجودها ذاته مهدد حضارياً طالما بقى القرآن ، وطالما بقيت مكة ، رمز الوحدة للمسلمين .

الحرب على القرآن :

والقرآن فى حياة المسلمين ليس مجرد كتاب مطبوع ، بل هو تنزيل من رب العالمين .. تحفظه الصدور ، وتنقله الأجيال ، وتطبقه الشعوب ، وتلتزم به الجماهير سلوكاً وتعاليم .

وإذن ، فإن أى هجوم على القرآن لا بد أن يخطط له بأناة وحكمة حتى لا يستثير كوامن الغيرة والحفاظ لدى المسلمين ، وبذلك يؤخذون من حيث لا يشعرون ، كما أن هذا الهجوم يجب أن يواجه جميع المجالات المواجهة ، فى مجالات اللغة ، والسلوك ، والتشريع ، والعبادات .

وبذلك يمكن محاصرة الإسلام من كل الجهات .

ولقد أحسن الأستاذ عبد الغفور عطار تصوير هذه الحملات التى خططها أعداء الإسلام ، فقال فيما يتعلق بنص القرآن : « رأوا أنه لا بد من محاصرة القرآن حصاراً شديداً ، وتطويقه حيث لا يكون له منفذ ولا متنفس ، فأقاموا عليه الرقباء والحراس اليقظين ، وجردوا عليه الحملات التى لا تحصى :

حملة تتناول أسلوب القرآن بالنقد والتقبيح ..

وحملة تتناول القرآن الآية الكبرى فتنكرها ..

وحملة تتناول لغته من ناحية قواعد العربية نفسها ، وتزعم أن فى القرآن غلطات نحوية !!

وحملة تتناول قصصه ، وتزعم أنها أساطير ..!

وحملة تتناول معانيه ..

وحملة تتناول ما فيه من تشريع وحدود ونظم ..!

وحملة تناول القرآن على أنه نسخة من كتب العهد القديم والجديد !!

وحملة تتناول قراءته وتدريسه .. »

ولكل حملة من هذه الحملات أقطابها ، ودعاتها ، ومتخصصوها ، الذين يعتمدون على التشكيك فى كل المسلمات الإسلامية ، وفى كل

الحقائق القرآنية ، ولقد خاض فى هذه الحملات أدعياء ثقافة وصحفيون ، حتى ظهر من يدعو إلى عدم ضرورة حفظ القرآن أو تحفيظه للتلاميذ ، لأن ذلك لا يتفق مع النظريات التربوية التى قال بها علماء صليبيون ، أو ملاحدة ، أو صهيونيون .

وحسبنا أن نذكر هنا ذلك الدعى الذى ظهر فى الجيل الماضى باسم سلامة موسى ، وقد كان غاية ما نذر نفسه له ، هو الحرب ضد الإسلام ، انتصاراً لصليبية مقيتة يبرأ منها السيد المسيح ، ويبرأ منها المسيحيون الشرفاء ، لقد كان سلامة موسى يرى « أن تدريس الدين فى المدارس سوف يحدث خلافاً وشجاراً بين المسلمين والأقباط » ! ولقد كذبت الوقائع بعد ذلك ظنه ، فلم يكن لتدريس الدين أثر فى المدارس إلا ربط أفراد المجتمع بدينهم وفضائله ، مهما اختلف الدين ، تأكيداً للوحدة الوطنية القوية .

ولقد كان لهذه الحملات الكثيرة هدف آخر ، رمى إلى تحقيقه كهنة هذه الحرب الفكرية ، وهو إلهاء المسلمين في مشكلاتهم ، وشغلهم بأمور داخلياتهم ، وبعثرة جهودهم حتى لا تتكتل دفاعاً ضد العدو المتربص ، ولقد تحقق لهم ما أرادوا ، وانصرف علماء الإسلام عن واجب تبليغ دعوته ، إلى واجب الدفاع عنه فى قضايا جزئية ، يثيرها أدعياء العلم والأدب والثقافة .

وفى هذا الصدد ظهرت معارك حول التشكيك فى صحة الشعر الجاهلى ، وحول التشكيك فى الصدق التاريخى للقصص القرآنى ، والادعاء بأن بعض ما جاء فيه لا يمثل الحقيقة ، وإنما هو رمز إلى أمور يستهدفها الشارع ، كما كثر الدعاة إلى استعمال العامية بدل الفصحى ، وإلى استعمال الكتابة اللاتينية فى تمثيل الأصوات العربية ، وكان لبعضهم حول وطول فى المحافل الأدبية ، يسر لهم سبيل الشهرة ، مع أنهم كانوا يدعون إلى الفساد والانحلال فى المجتمع ، تلبية لدعوة زيفها بعض المستشرقين ، من أعداء العروبة والإسلام ، ومن عملاء الصهيونية والاستعمار .

الدعوة إلى العامية :

فلنبدأ القضية من أقدم سطورها ، لنعرف من أين خرجت جذورها ، وهى كما يقول الأستاذ محمود شاكر قديمة جداً : « فمنذ استيقظ العالم الأوربى لنهضته الحديثة وهو يرى عجباً من حوله .. أمم مختلفة الأجناس والألوان والألسنة .. من قلب روسيا ، إلى الهند ، إلى جزائر الهند ، إلى فارس ، إلى تركيا ، إلى بلاد العرب ، إلى شمال أفريقية ، إلى قلب القارة الأفريقية وسواحلها ، إلى قلب أوربا نفسها ـ تتلو كتاباً واحداً يجمعها ، يقرؤه من لسانه العربية ، ومن لسانه غير العربية ، وتحفظه جمهرة كبيرة منهم عن ظهر قلب ، عرفت لغة العرب أم لم تعرفها ، ومن لم يحفظه جميعه حفظ بعضه ، ليقيم به صلاته ، وتداخلت لغته فى اللغات ، وتحولت خطوط الأم إلى الخط الذى يكتب به هذا الكتاب كالهند ، وجزرها ، وفارس ، وسائر من دان بالإسلام ، فكان عجباً أن يكون فى الأرض كتاب كانت له هذه القوة لخارقة فى تحويل البشر إلى اتجاه واحد ، متسق على اختلاف الأجناس ، والألوان ، والألسنة .

فمنذ ذلك العهد ظهر الاستشراق ، لدراسة أحوال هذا العالم الفسيح ، الذى سوف تتصدى له أوربا المسيحية بعد يقظتها ، وعلى حين غفوة رانت على هذا العالم (الإسلامى) » .

ولا ريب أن هذا الاستشراق كان طليعة الاستعمار الأوربى للعالم الإسلامى ، وأنه كان طليعة غير مسلحة بالأسلحة التقليدية ، كالبندقية والمدفع ، بل بأسلحة تتفوق عليهما فى أساليب الفتك ، وآثار الدمار ، وأعنى بذلك دقة التخطيط ومهارة الكيد والتآمر ، وقد بدأ الاستشراق بدراسة أحوال هذا العالم الإسلامى ، باسم الحضارة والمدنية ، وقسّم العالم الإسلامى ، إلى عربى وغير عربى ، فأما القسم غير العربى فقد كان من السهل تحويل وجهته عن العربية إلى لغاته المحلية ، أو إلى لغات استعمارية جديدة ، بتأثير التفوق الحضارى .

ولا ريب أن ما حدث فى تركيا إبان الحركة الكمالية كان من تسلط هؤلاء الأوربيين على عقلية كمال أتاتورك ، ذلك الذى قطع كل علاقة بين تركيا والعالم الإسلامى ، وكان من آثاره (تغيير) الكتابة التركية من الحروف العربية إلى اللاتينية ، أملاً فى إلحاق تركيا بأوربا ، ولعل الزائر لتركيا الآن يرى إلى أى حد تحققت آمال هذا المغامر الحاقد على الإسلام والعربية ، فإن تركيا لم تحقق من وراء هذه الحركة أى هدف ، فلا هى لحقت فعلاً بالبلدان الأوربية فى مستواها الحضارى ، ولا هى أبقت على وشائجها بالوطن العربى والعالم الإسلامى .. إن محاولة (أوربة) تركيا لم تسفر إلا عن وضع ملفق خليط من أصباغ وألوان أوربية ، على حين بقيت النزعة الإسلامية تتلمس التعبير عن نشاطها .

ولقد كانت مهمة (الاستشراق) فى أكثر أحواله أن يرسم للدول الأوربية كيفية التهام أقطار العالم الإسلامى ، وازدرادها قطعة قطعة ، عن طريق دراسة أحوال شعوبها ، ولغاتها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، ومواطن القوة والضعف فى بنائها ، وكيفية التغلب على عناصر القوة ، وكيفية استغلال عناصر الضعف فى تقويض وجودها . وهكذا جاء الاستشراق إلى الوطن العربى .

ومن الملاحظات الجديرة بالتأمل فيما يتعلق بقضيتنا هذه ـ أن جميع المستشرقين وعدداً من تابعيهم من العرب ، وبخاصة فى لبنان ، على ما دعوا إليه من نبذ الفصحى ، واتخاذ العامية لغة ثقافة ـ هم من المسيحيين ، وهم أيضاً من غير المتخصصين فى الدراسات اللغوية ، وإذا وجد من بينهم من يحمل اسم المسلم ، فهو فى الواقع منحل خارج على الإسلام .. بل هو أسوأ من أن يكون مسيحياً ، ولربما وجد من بين المسيحيين العقلاء من دافع عن الفصحى وانتصر للغة القرآن .

وقد أدى عدم معرفة دعاة العامية بالدرس اللغوى ـ إلى أن وقعوا فى أخطاء

ساذجة ، تدل على الجهل ، المتلفع بالحقد والضغينة والخداع .

ولنسمع إلى واحد من أقدم الدعاة إلى استخدام العامية ، ونبذ الفصحى ، وهو المستشرق الألمانى (ولهلم سبيتا) ١٨١٨-١٨٨٣ ، وقد كان موظفاً بدار الكتب المصرية ، وقد خالط سبيتا جماهير الشعب المصرى ، وترس ما يستهدفه أى مستشرق عنها ، فى حدود المخطط المعروف ، ثم خرج على الناس بكتاب أطلق عليه (قواعد اللغة العامية فى مصر) ، وقد جاء فى مقدمته فيما نقلته الدكتورة نفوسة زكريا قوله : « وأخيراً ، سأجازف بالتصريح عن الأمل الذى راودنى على الدوام طول مدة جمع مادة هذا الكتاب ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، ويمس أمراً بالنسبة لها وإلى شعبها ، يكاد يكون مسألة حياة أو موت ، فكل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يرى إلى أى حد تتأثر كل نواحى النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، ففى مثل تلك الظروف لا يمكن مطلقاً التفكير فى ثقافة شعبية ، إذ كيف يمكن فى فترة التعليم الابتدائى القصير أن يحصل المرء ، حتى على نصف معرفته بلغة صعبة جداً ، كاللغة العربية الفصحى ؟!

ثم يقول : « وطريقة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء والمعقدة ، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا ، ومع ذلك يكون الأمر سهلاً لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة ، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة ، فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة ، بدلاً من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالى من المصريين ، مثل غرابة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، وبالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقى ويتطور » !!

ولعل من الدوافع التى حدت بولهلم سبيتا إلى أن يخرج كتابه هذا ـ أن مصر كانت تعيش فترة يقظة تمثلت فى إنشاء مدرسة دار العلوم ، عام ١٨٧٢ ،

وظهور بعض النوابغ في العربية وآدابها ممن اشتغلوا في هذه المدرسة كالشيخ حسين المرصفي ، أو ممن اهتموا بإحياء العربية الفصحى ، كالشاعر محمود سامي البارودي ، ويرى الأستاذ شاكر أنه قد (بدأت العربية من يومئذ تستعيد شبابها وقوتها ، وانطلقت الألسنة من عقال السجع بفضل هذين الرجلين) .

والواقع أن مصر ، التي كانت موضع تركيز للنشاط الاستشراقي التخريبي ، كانت في ذلك العهد على مفترق الطرق :

فمن الناحية السياسية كانت فيها صحوة أدت إلى الثورة العرابية ، ومن الناحية الأدبية كانت فيها صحوة أدت إلى بعث العربية من سباتها ، بعد ليل طويل من التخلف والجمود .

ولولا هذا التحرك الجديد ما تحركت ألسنة سبيتا وشيعته ، بمثل هذا الكلام ، لأن الأوضاع الراكدة لا تحرك حقداً ، ولا تدعو إلى اقتراح جديد ، ولكن سبيتا ، وهو يعمل في إطار مخطط مرسوم له من قبل ، لاحظ أن الأمور توشك على التقدم إلى آفاق جديدة بالإحياء وبالثورة ، فطلع على الناس بهذه الفتنة ، رجاء أن يحرّف مسيرتهم ، وإذا لم يستطع ذلك على وجه الكمال فليكن له أن يشوش على حركة الوطنية المصرية ، ليعوق سيرها نحو أهدافها .

ومع ذلك فإن سبيتا كان يتحدث بلغة مكشوفة تطفح بالخداع ، كما أنها حافلة بالجهالة اللغوية أساساً .

فما من شعب على هذه الأرض إلا وهو يتكلم خلاف ما يكتب ، إذ أن من الحقائق المقررة أن يكون هناك دائماً مسافة بين لغة الحديث ، ولغة الفكر والكتابة ، تعرف ذلك كل لغات الدنيا ، حية أو نصف حية ، واللغة ـ أية لغة ـ ليست هي القدر الذي يتحدث به الناس ، فلغة الحديث لا تمثل أكثر من ٥٪ من حجم اللغة المكتوبة ، والمجموعة في المعاجم والقواميس ، فلو أننا ألغينا

ما يكون من الفصحى فى الألفاظ والتراكيب ، لما بقى لنا شىء فيما يسمى بلغة الحديث ، ولكانت أزمة هائلة تؤدى إلى أبشع عملية تخريب حضارى ، كما أراده ويريده أعداء مصر والعروبة والإسلام .

والحديث عن صعوبة العربية حديث عن وهم لا حقيقة له ، فكل لغات الدنيا عبارة عن كلمات ، وتراكيب من هذه الكلمات ، ولكل كلمة مدلول أو عدة مدلولات ، وعلاقة الفرد باللغة هى علاقة التلقى عن الجماعة بالحفظ والتدريب .

ولا فرق فى ضرورة الحفظ والتدريب بين لغة وأخرى ، أو بين متكلم وآخر .

ولكل لغة تقاليدها التى تميزها عن غيرها ، وعلى من يريد معرفتها أن يهضم هذه التقاليد ، كما هضمها سيبتا وأضرابه ، وأكبر دليل على إمكان هذه المعرفة لمن أراد ـ إتقان كثير من هؤلاء المستشرقين الغربيين للفصحى ، ربما بصورة أفضل من بعض العرب أنفسهم ، يقابل ذلك قدرة كثير من العرب على إتقان اللغات الأجنبية ، بطول المران ، وجودة الحفظ .

فإذا جئنا إلى الكتابة كان أمرها أهون ، لأن كمية الرموز المستخدمة فى تسجيل النطق هى فى الواقع نصف المنطوق ، أو أكثر بقليل ، ومعنى ذلك أن الكتابة العربية كتابة موجزة .

فهل يمكن أن تكون الكتابة اللاتينية أوفى من الكتابة العربية فى تسجيل المنطوق ؟

ذلك أمر بعيد ، إذ أن البشرية لم تعرف حتى الآن نظاماً كتابياً يسجل واقع النطق كما هو ، لأنه إنما يتدخل دائماً عوامل كثيرة أهمها : التاريخ والتراث ، وعدم قابلية نظام الكتابة للتطور طبقاً لتطور النطق المسموع ، أى : إن نظام الكتابة

فى جميع اللغات هو دائماً مختلف ، ومع ذلك فإن الأجيال تبقى عليه ، حفاظاً على علاقتها بماضيها ، ولو أن كل جيل استباح أن يغير نظام الكتابة تبعاً لمواصفاته النطقية لكان لكل جيل نظامه الكتابى الذى يختلف قطعاً عن سابقه ، قليلاً أو كثيراً ، وهو أمر أقرب إلى الفوضى منه إلى الاستقرار أو التقدم !

وأما التمثيل للفرق بين العربية الفصحى والعامية بالفرق بين اللاتينية والإيطالية فليس مقبولاً من الناحية اللغوية ، لأن لكل لغة ظروفها الخاصة التى تنفرد بها ، واللغة العربية لغة مصطفاة ، نزل بها أخلد كتاب ، عرفته البشرية ، فاستقرت صورتها اللفظية ، واحتكمت قدرتها البيانية ، وأصبح كل مبين بهذا اللسان منجذباً إلى لمحات البيان القرآنى ، كما تنجذب الكواكب والنجوم إلى مراكز جاذبيتها فى المجرة التى تسبح حولها ، والقرآن لهذه الأمة المؤمنة إنما هو مركز جاذبيتها الأعظم فى الاتجاه الصادق والهادف إلى الله .

هذه مناقشة لما ساقه ولهلم سبيتا ، ومن وجهة نظر موضوعية محضة ، فإذا وضعنا كلامه هذا فى ضوء خلفياته الدينية الاستشراقية زادت الصورة عجباً وإثارة ، ولنقرأ ما قاله هذا المحترق بحقده فى التعقيب على دعوته :

« لماذا لا يمكن تغيير هذه الحال المؤسفة إلى ما هو أحسن ؟ ... ببساطة لأن هناك خوفاً من التعدى على حرمة الدين إذا تركنا لغة القرآن كلية ، ولكن لغة القرآن لا يكتب بها الآن فى أى قطر ، فأينما وجدت لغة عربية مكتوبة فهى اللغة العربية الوسطى ، أى : لغة الدواوين ، وحتى ما يدعى بالوحدة بين الشعوب العربية لا يمكن أن يقلقها تبنى لغة الحديث العامية ، إذ أن لغة الصلاة والعبادات الدينية الأخرى ستظل كما هى فى كل مكان » .

والعجيب أن نجد فى هذا الكلام محاولة للتفريق ، والتمزيق ، إذ بينما يفصل لغة القرآن عما سماه باللغة العربية الوسطى ، نجده يفصل لغة الحديث

اليومية عما سماه : لغة الصلاة والعبادات الدينية ـ كأنما يحلم بأن تصبح العربية لغة كهنوت ، حين تتحول المساجد إلى معابد خربة ، وحين يتحول علماء الإسلام إلى قسس متجمدين داخل الأديرة !!

والأعجب من ذلك أن تجد هذه الدعاوى تتكرر فى أحدث طبعاتها ، فى مجلة (ديوجين) التى تصدرها منظمة اليونسكو ، فقد نشر بها فى العدد الخامس والعشرين (مايو ـ يوليو ١٩٧٤) مقال لكاتب لا تخفى على فطنة القارىء هويته واسمه : وهو أنطون مطر ، والمقال بعنوان :

(اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال فى مستقبل عالم المتكلمين بها) .

وقد وصف الكاتب اللغة العربية الفصحى بأنها لا يمكن أن تستعمل اليوم فى نقل الفكر الحديث لثلاثة أسباب ظاهرة :

١ ـ قد احتفظت اللغة العربية لمدة قرون بطابع دينى قوى جداً ، وهى عند المسلمين لغة الوحى ، وهى كذلك لغة الوحى عند الأتراك والأندونيسيين والباكستانيين ، وآخرين من الذين لا يستطيعون فهمها ، وهؤلاء لهم لغة قومية علمانية ، فى حين أن العرب ليست لهم لغة من هذا النوع .

٢ ـ اللغة العربية وسيلة معبرة عن حضارة قديمة قوية التأثير ، ظلت مرتبطة بتراثها القديم كأنها لن تكون أكثر من وسيلة للتعبير عن التاريخ .

٣ ـ تجاوز التطور الاجتماعى والاقتصادى العالم العربى من ناحية ، كما تجاوزه التطور التقنى من ناحية أخرى ، لأنه ظل منفصلاً عن حركة التقدم العلمى المسرعة المعاصرة لأسباب سياسية فى جوهرها .

إن بين سبيتا وأنطوان مطر فاصلاً زمنياً يقترب من قرن كامل ، ومع ذلك نجد أن أسس دعواهما واحدة ، تقوم على التعريض بالفصحى ، فهى لغة طقوس

دينية (كاللاتينية والقبطية داخل الكنائس) ، وهى لغة تاريخية ميتة كاللغة المصرية القديمة ، وهى لغة متخلفة تجاوزها التقدم العلمى والحضارى ، وباختصار : هى أسوأ لغة فى العالم منذ كان إلى أن لا يكون !! ..

وكأنما عز على أعداء الإسلام أن يكون الإسلام سبباً فى خلود العربية ، فهم يحاولون قلب الناموس ، ليصبح الواقع أن العربية ماتت بسبب اتصالها بالإسلام !

والحق أن المرء يرثى لحال أولئك الناس ، فهم يعانون قطعاً آلاماً عقلانية ونفسانية هائلة أصابهم بها ثبات العربية والإسلام ، فى توحدهما التاريخى ، أمام ضراوة الحرب الاستشراقية ، وخبث الكيد الذى اصطنعه المستشرقون لفصم هذه العروة الوثقى ، التى هى فى الحق إرادة الله .

غير أن أنطوان مطر يمتاز عن سبيتا بميزة ترجع إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى عاش فيها كلاهما ، كما قد ترجع إلى اختلاف تكوينهما العلمى .

إن كلام سبيتا يبدو مقززاً مكشوف العورة أمام كل من يقرؤه ، ولكن كلام أنطوان مطر يتقمص أردية من التحليل اللغوى المغالط ، ومن النزاهة العلمية المزعومة ، وقد يتجلى هذا الموقف فى حديثه عن سر الضعف اللغوى فى الحياة العربية المعاصرة ، وأنه راجع إلى ضعف الاتصال بين أفراد المجتمع ، نظراً لما ينشأ عن (التعدد اللغوى) الواقع فعلاً من اضطراب فى هذا الاتصال فهو يقول :

« وأكثر من ذلك كيف يتحتم تكوين طبيعة هذا الاتصال ؟ وكيف يتكون بناؤه فى مجتمع يكتب لغة دون أن يتحدث بها ، ويتكلم بعدة لهجات ينشأ منها لغات قومية (كذا) دون أن تكتب ؟ وما هى فرص البقاء للغة مكتوبة ولا يتحدث فى ختام القرن العشرين ؟ وماذا يبقى من اللغات غير المكتوبة التى يتحدث بها سوى عناصر تاريخية ، وفولكلورية تشمل فى النهاية مجموعة من التقاليد من لوازمها وصفاتها عدم التغير ، والارتباط الشديد بالماضى ؟ » !!

وواضح أن هؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلة التخاطب فى اللغة العربية ـ كهؤلاء الذين يستدعون لتناول مشكلات التعليم فى عالم المتحدثين باللغة العربية ـ عليهم أن ينظروا فى أول الأمر : التعدد اللغوى الذى يمكن أن يكون على وجه التقريب كما يأتى :

الأدب القديم (المكتوب الذى لا يتحدث به) .

الأدب الحديث (المكتوب الذى لا يتحدث به عن طريق الاتصال بالجماهير) .

اللهجات (التى يتحدث بها ولا تكتب) مثل :

الجزائرية .. السورية .. المصرية .. السعودية .. العراقية .. المراكشية .. الأردنية .. إلى آخره .. !

وهذا التعدد يؤدى إلى تباعد بين المتحدثين باللغة العربية عن بيئتهم الإنسانية ، ويجعل ظاهرة الامتزاج من الصعوبة بمكان ، وهذا الوجه خاص له أهميته فى مستوى الإعلام الجماهيرى ، فالجزائرى والمراكشى أو التونسى لا يفهم شيئاً من اللهجات المصرية أو السورية أو اليمنية .. إلخ ..

وليس من الممكن إدراك الهدف من هذا الكلام عندما يساق هذا المساق العلمى فى الظاهر ، إذا كانت الجهود التى يبذلها هؤلاء هى لعلاج مشكلة الاتصال الجماهيرى التى هى جوهر المشكلة اللغوية .

وإذا كانت العربية القديمة الفصحى ميتة جامدة متخلفة فى نظرهم ـ فماذا يمكن أن تحققه اللهجات المتعددة ، أو اللغات المتعددة ، فى تحسين عملية الاتصال الجماهيرى ، مادام العرب لا يفهم بعضهم بعضاً لهجياً ؟

إن اللجوء إلى استعمال اللهجات يعنى بالضرورة خلق كيانات منعزلة مستقلة ، بعدد اللهجات المختلفة ، وهو أيضاً باب من احتمال التمزق العربى إلى

كيانات أصغر ، كلما أحست مجموعة من الناس باختلاف لهجتها عن لهجة شركائها فى الوطن ، وهذا بالطبع هو ما يريده أعداء العروبة والإسلام ، من أول سبيتا إلى آخر أنطوان .. !!

ثم إن هناك أمراً آخر هو التهويل فى تصور الفروق اللهجية ، بحيث تصير اللهجات لغات قومية ، متميزاً بعضها عن بعض ، كتعدد اللغات الإيطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية ، من بنات الفصيلة اللاتينية وهكذا ، وهو أمر يرفضه الواقع ويفضحه ، إذ أن الشعوب العربية تعيش طوال تاريخها حالة من الاتصال الجماهيرى من خلال اللغة الفصحى ، لم تضعف عبر القرون ، بفضل القرآن الكريم ، ولقد حكمت العالم الإسلامى ، العربى وغير العربى ، دول كثيرة ابتداء من الدولة الأموية ، ثم العباسية فى المشرق ، والأموية فى المغرب وأسبانيا ، ثم الفاطمية ، والأخشيدية ، والطولونية ، والأيوبية ... إلخ ، وتفاهم المسلمون عبر هذا التاريخ حول مشكلاتهم الرئيسية المشتركة ، دون أدنى اضطراب فى أداة الاتصال ، التى كانت هى هذه الفصحى ، مع وجود اللهجات العامية المحلية .

فما الذى وقع حديثاً حتى تضعف أداة الاتصال ، ونحن فى عصر المواصلات السلكية واللاسلكية والكهرباء الترانسيستور ، والصحافة والتليفزيون ، والمفروض أن تذلل هذه الوسائل صعوبات الاتصال ، وتساعد على نشر الوعى اللغوى ؟

ثم إن القرآن مازال هو هو ، مقروءاً ، ومحفوظاً ، ومكتوباً ، ومرفوعاً على أنه شعار يلهم الجماهير ، ويقود تحركها نحو المستقبل ؟

فتعدد اللهجات فى الوطن العربى الواحد ليس عقبة فى طريق التوحيد اللغوى ، لأنه مطروح جانباً أمام دواعى التقارب والاندماج ، والوسيلة الوحدة لتأكيد هذا التقارب والاندماج هو تناسى أمر اللهجات ، وما تثيره أحياناً من

مشكلات ، والالتفات إلى نشر الفصحى ، ودعم وجودها ، ومحو الأمية التى تعوق انتشارها ، وبذلك يمكن تحديد نوعية الاتصال الجماهيرى بما يخدم أهداف الوحدة العربية ، والمستقبل الإسلامى .

أعداء الفصحى :

واضح إذن أن ولهلم سبيتا ، وأنطوان مطر يمثلان قوسين أولهما فى أول قرن يبدأ فى عام ١٨٨٠م ، عندما نشر كتابه (قواعد اللغة العامية فى مصر) ، وإن كان قد بدأ قبل ذلك طبعاً ، وثانيهما فى أواخر هذا القرن عندما نشر مقاله عام ١٩٧٤ .

وبين هذين القوسين تقع مجموعة من الأسماء التى وعتها ذاكرة هذه المشكلة ، وأشارت إليها الدراسات الخاصة بها ، والتى سبق أن لفتنا النظر إليها .

فما إن ظهر كتاب سبيتا حتى انبرت صحيفة (المقتطف) التى كان يصدرها الصحفى يعقوب صروف منذ عام ١٨٧٦م ـ لتشجيع دعوته إلى نبذ الفصحى ، وأخذ العامية لغة لكتابة العلوم ، فضلاً عن أن تكون لغة الصحافة مثلاً .

وكانت هذه الخطوة ذات مغزى فى تناول المشكلة ، لأن العلوم هى الميدان الذى قصرت فيه العربية آنذاك ، بسبب الحصار الاستعمارى الذى ضرب حولها .

وبعد سبيتا ظهر مستشرق آخر ألمانى هو كارل فولرس (١٨٥٧ـ ١٩٠) وقد عمل أيضاً كسلفه فى مجال الكتب ، فكان أميناً للمكتبة الخديوية بالقاهرة ، وألف عدة كتب أو رسائل فى العامية المصرية ، وأشهرها كتابه (اللهجة العامية الحديثة فى مصر) .

ثم يأتى مستشرق ثالث ، وهو فى هذه المرة إنجليزى ، اسمه وليم

ولكوكس (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢) ، وقد كان الرجل مهندساً فى الإنشاءات الهيدروليكية ، وهو الذى أشرف على تخطيط وبناء خزان أسوان عام ١٨٩٨ م .

والعجيب أن نجد هذا المهندس يخوض فيما خاض فيه أسلافه من مخطط العداء للفصحى ، رغم أن عمله وتخصصه لا يؤهلانه لمثل ما قال ، ولكنه الهدف الواحد الذى يجمع الأشتات ، ولعل قراءة النص التالى تكشف عن معدنه الخداع .. يقول ولكوكس فى إحدى محاضراته :

« قضيت عشر سنوات حين كنت فى خدمة الحكومة المصرية وأنا أشرف على مدرسة الهندسة ، وأمتحن طلبتها ، وكنت أجد بين الطلبة من يعدون حقاً من الأذكياء ، ولكنهم كانوا يسيرون فى دروسهم ببلادة ، لأنهم كانوا يقرأونها باللغة الفصحى المصطنعة ، وليس باللغة المصرية الحية » !

ويردد فى أثناء أحاديثه : « إن الذى عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى » ، « وإن اللغة العربية الفصحى ماتت بسبب جمودها وصعوبتها » !!

ويبدو أن هذه الحملة على الفصحى من الزاوية العملية كانت التمهيد السياسى لاستيلاء المستشار الإنجليزى (دنلوب) على التعليم فى مصر ، وتغليب الإنجليزية فى جميع مراحل التعليم .

ثم يقدم المخطط خطوة أخرى بما يكتبه القاضى ساوف ولمور ، وقد كان يعمل فى محاكم مصر ، فقد ألف كتاباً بعنوان (العربية المحلية فى مصر) ، ودعا فيه إلى اتخاذ الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية ، واتخاذ اللاتينية لغة أدبية .

وهكذا يظهر لنا التدرج فى تقديم الاتفاق الاستعمارى ضد لغة القرآن ، فقد بدأ المخطط متدرجاً هكذا :





١ـ العربية صعبة ـ جامدة ـ ميتة ..

٢ـ العربية ليست لغة للعلوم ..

٣ـ الإنجليزية لغة التعليم ..

٤ـ لابد من تبنى الرموز اللاتينية فى الكتابة العربية .

٥ـ يجب اتخاذ اللاتينية لغة أدبية ، كما أصبحت الإنجليزية لغة للتعليم ..

ومازلنا حتى الآن نواجه شخوصاً وأشباحاً أجنبية ، من الألمان ، والإنجليز ، ذكرنا رءوسهم ، وأعرضنا عن أذنابهم ، يسيرون فى نفس الاتجاه العدوانى للغة القرآن .

ولكن هؤلاء لم يعملوا وحدهم ، بل استطاعوا أن يجندوا لهم عملاء فى مصر ، وفى لبنان ، وكانوا مصرين على ترديد كلام سادتهم من الأجانب العدوانيين ..

ومن أخبث الرؤوس التى حملت كِبْرَ هذه الدعوة فى الصحافة المصرية ـ الصليبى الماركسى الحاقد سلامة [1] موسى ، وقد بدأ أولاً فى مقاعد المصفقين لمقالات ومحاضرات السير ولكوكس ، وكان فى مقالاته يخلط جهلاً وهذياناً وحقداً ، يمثله أصدق تمثيل قوله :

« وقد خطب السير ولكوكس منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة (العامية) جمع فيها اختباراته عنها ، وارتأى فيها أن هذه العامية التى نتكلمها فى مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى ، فكل منهما لغة متميزة عن الأخرى ، ونحن لم نكتبها عن العرب ، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس (!) الذين أقاموا فى مصر

---

(١) وصف المستشرق الفرنسى جاك بيرك سلامة موسى بأنه ماركسى ـ انظر ترجمتنا لمقدمته لكتاب (مختارات من الأدب العربى المعاصر) المنشورة فى مجلة المجلة ـ عدد سبتمبر ١٩٦٦ .

نحو ٥٠٠ سنة ، وأن طريقة النفى المزدوج حين نقول : (أنا ماعملتش) هى طريقة لا يعرفها العرب ، وإنما جاءتنا من الهكسوس ، الذين انتشرت لغتهم فى أقطار عدة حول مصر ، حتى بلغت مالطة ، وهذه اللغة تعبر الآن عن مزاجنا ، وتقوم بالمعانى التى تختلج فى أذهاننا ، أما اللغة الفصحى فهى (الهيروغليفية) التى يترجم كتابنا وطلبتنا إليها خواطرهم وأفكارهم ، كما ينقلونها أحياناً إلى الإنجليزية أو الفرنسية ، ويرطنون بألفاظها المحفوظة من الكتب » أىّ هذيان !!؟؟

وقد وقف سلامة موسى بعد ذلك داعية إلى نبذ الفصحى ، رغم أنه كتب كل آثاره بها ، والسر فى ذلك أنه كان فى الواقع (ممثلاً) يلعب أدواراً كثيرة فى الحياة المصرية لحساب هدفه الهدام ، فهو يرفع الصليب ، ويقدس المنجل والمطرقة ، ويعزف القداس الفرعونى فى الدعاية لأمجاد الوطنية المصرية القديمة ، ثم يتلوى بأى كلام يوصله إلى هدفه ، وينفس به عن حقده على العروبة والإسلام ..!

وهو أحياناً يبدو فى صورة المستغل لغفلات الآخرين ، كما حدث حين قال : « إن التأفف من اللغة الفصحى ليس حديثاً ، إذ يرجع إلى ما قبل ثلاثين سنة ، حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها » .

ولقد كان قاسم أمين تعرض فى بعض كتاباته لقضية اللغة : فدعا مرة إلى تدعيم اللغة العربية بتحرير أسلوبها على أقلام الكتاب ، من التصنع والتكلف ، فهو يقول : « الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات فلايأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشواً فى الكلام مستهجناً ، ودليلاً على فقر فى الفكر والخيال » .

ودعا مرة أخرى إلى فتح باب الاجتهاد فى اللغة : « فإذا أتحنا للغة العربية أن تستوعب المصطلحات الأوربية الجديدة الخاصة بالاختراعات أثرينا اللغة ، وإذا انتقينا من العامية الكلمات الفصيحة ، أو التى لها أصل عربى فصيح ، لم نحتج



إلى الاشتقاق والنحت ، فنحن خلفاء العرب ، وما تخترعه ملكاتنا في اللغة يعد عربياً » .

وليس في هذه الآراء ما يمس إيمان قاسم أمين بالعربية وقدرها ، ومستقبلها .

ولكن قاسم أمين تحرك خاطره يوماً عندما رأى كثرة اللحن في ضبط الكلمات ، فدعا إلى نوع من الإصلاح اللغوى ، قال فيه :

« لم أر بين جميع من عرفتهم شخصاً يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن ، أليس هذا برهاناً على وجوب إصلاح اللغة العربية ، لى رأى فى الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الإفرنكية ، واللغة التركية ، يمكن حذف قواعد النصب ، والجوازم ، والحال ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة ، إذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم ، أما فى اللغة الفصحى فإنه يفهم ليقرأ ... لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » .

وواضح أيضاً أن قاسماً لم يرد التخلى عن الفصحى ، إنما أراد إصلاح وضع معين ثقافى ، فأخطأ الوسيلة ، ولكن سلامة موسى يرى أنه دعا إلى العامية بهذا الرأى ، تصيداً منه للمتشابه ، وتحميلاً للنصوص بأكثر مما تحتمل .

لقد كان سلامة موسى ـ كما سبق القول ـ صليبياً ماركسياً غوغائياً مشككاً ، وتحت هذه الأقنعة كلها يمكن أن نفهم قوله فى كتابه (اليوم والغد) :

« الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا » !!

إنه لا يرى فى مقومات وجود أمته سوى أن تكون ذيلاً لمستعمريها ، بكل ما يترتب على ذلك من قضاء على الإسلام ، وعلى اللغة ، وعلى العروبة ، ومن عجب أن يعتبر بعض كتابنا هذا المتلون الحاقد الجهول من دعاة الإصلاح !!

وإذا كان سلامة موسى أثراً شائهاً من آثار الجهود الاستعمارية ضد العربية والإسلام ، فإنه قد أثر فى كثير من الأذناب الذين بدأوا حياتهم يدعون إلى ما كان يدعو إليه ، وفى مقدمتهم لويس عوض الهازل بتفاهاته من خلال عمله بجريدة الأهرام والمسترسل فى أباطيله ، وضلالاته المخامرة إلى اليوم !!

وشبيه بموقف قاسم أمين فى أوائل القرن العشرين ـ موقف كاتب معاصر هو الأستاذ يوسف السباعى الذى نشر مقالاً فى مجلة الرسالة الجديدة (مايو ١٩٥٥) يطالب فيها بالتخلص من قواعد النحو والصرف ، ربما لأنه لم يستوعبها حتى الآن ، برغم اشتغاله بالأدب ، ورغم حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى أدب اللغة التى لايعرف نحوها أو صرفها .. هذا فى مصر .

أما فى لبنان : فقد عرف من هؤلاء الدعاة للعامية الخورى مارون غصن ، وهو مبشر حاقد على الإسلام ولغة القرآن .

ومن بنى جلدته رجل آخر هو أنيس فريحة ..

وثالث هو سعيد عقل ، ولعله أنشطهم الآن ، إذ هو يحمل لواء الدعوة إلى سلخ لبنان بلغته أو بلهجته من جسد العروبة ، واتخاذ الرموز اللاتينية فى كتابتها ، وهو يتربع على قمة مؤسسة لطبع الكتب بالخطة الجديدة ، وتتولى الإنفاق على مشروعه مؤسسات أمريكية وصهيونية ..!!

وأخيراً هل نستطيع ـ والحال هذه ـ فصل الدعوة إلى استخدام العامية فى لغة المسرح بإطلاق عن هذه القضية ذات الجذور البعيدة ، وبخاصة إذا حمل

لواءها ناس معروفون بمعتقداتهم الماركسية ، ودعوتهم إلى ما يسمونه بالواقعية ، فى اللغة ، وهو تحريف لمعنى الواقعية فى الفن .. ؟!!

خلاصة القضية :

وبعد ؛ فقد طال الشوط الذى بدأناه ، وكنا نأمل أن لا يطول على هذا النحو ، ولكن للضرورة أحكام ، وضرورة استيعاب هذه المشكلة تقتضى أكثر مما قدمنا ، فهو إذن إيجاز حيث ينبغى الإسهاب .

بيد أن لنا بعض الملاحظات فى ختام هذا الشوط :

أولها : أنه قد اتضحت للقارىء المسلم طبيعة الصراع الذى يقف فيه المسلمون مدافعين عن الدين والفصحى والقرآن ضد الأعداء المتربصين ، من كل أرجاء الأرض .

ثانيها : أنه قد انكشفت حقيقة هؤلاء الأعداء ، وأسفرت نواياهم ، وهى بعيدة تماماً عن هدف الإصلاح اللغوى ، الذى لا يمكن أن يتحقق إلا فى إطار الفصحى .

ثالثها : أن هؤلاء الداعين إلى إصلاح الوضع ليسوا لغويين ، وإنما هم خليط من الوراقين أمناء المكتبات ، ومن المهندسين ، وخبراء الاستعمار ، وعملائه ، فكلامهم فى مشكلة اللغة غير مقبول شكلاً أو موضوعاً .

رابعها : أن أحداً منهم لم يتفضل علينا بتجربة كتابة أدبه أو فكره باللغة العامية ، لنرى كيف يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ ، لأنه يعلم مقدماً أن مصير ما يكتبه حينئذ هو إلى المزابل لا غير !!!

وخامسها : أن أعداء القرآن ركزوا حملتهم على مصر أولاً ، ثم كانت لهم جولة فى لبنا ن ،لأن مصر هى قلب الوطن العربى ومنارة التوحيد فى العالم الإسلامى .

وسادسها : لقد ركّز الأعداء حملتهم وهجماتهم على العربية ، حتى كأنها هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تستحق هذا الهجوم ، لا لشيء إلا لأنها لغة القرآن .

وسابعها : نحن لسنا ضد دراسة اللهجات كواقع لغوى ، ولكننا ضد محاولة تمزيق الأمة العربية بتقطيع علاقتها بالفصحى ، وهى المقوم الأساسى لأية وحدة عربية إسلامية .

وأخيراً ؛ فإن من المؤكد أن هذه الدعوات لا تزال رغم قوة التيار القومى والدينى راصدة لفرص الغزو ، ناشطة فى إثارة الشكوك ، والأمل فى الله أن ينزل نصره على دعاة دينه ، وحماة قرآنه تحقيقاً لوعده الصادق .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] .

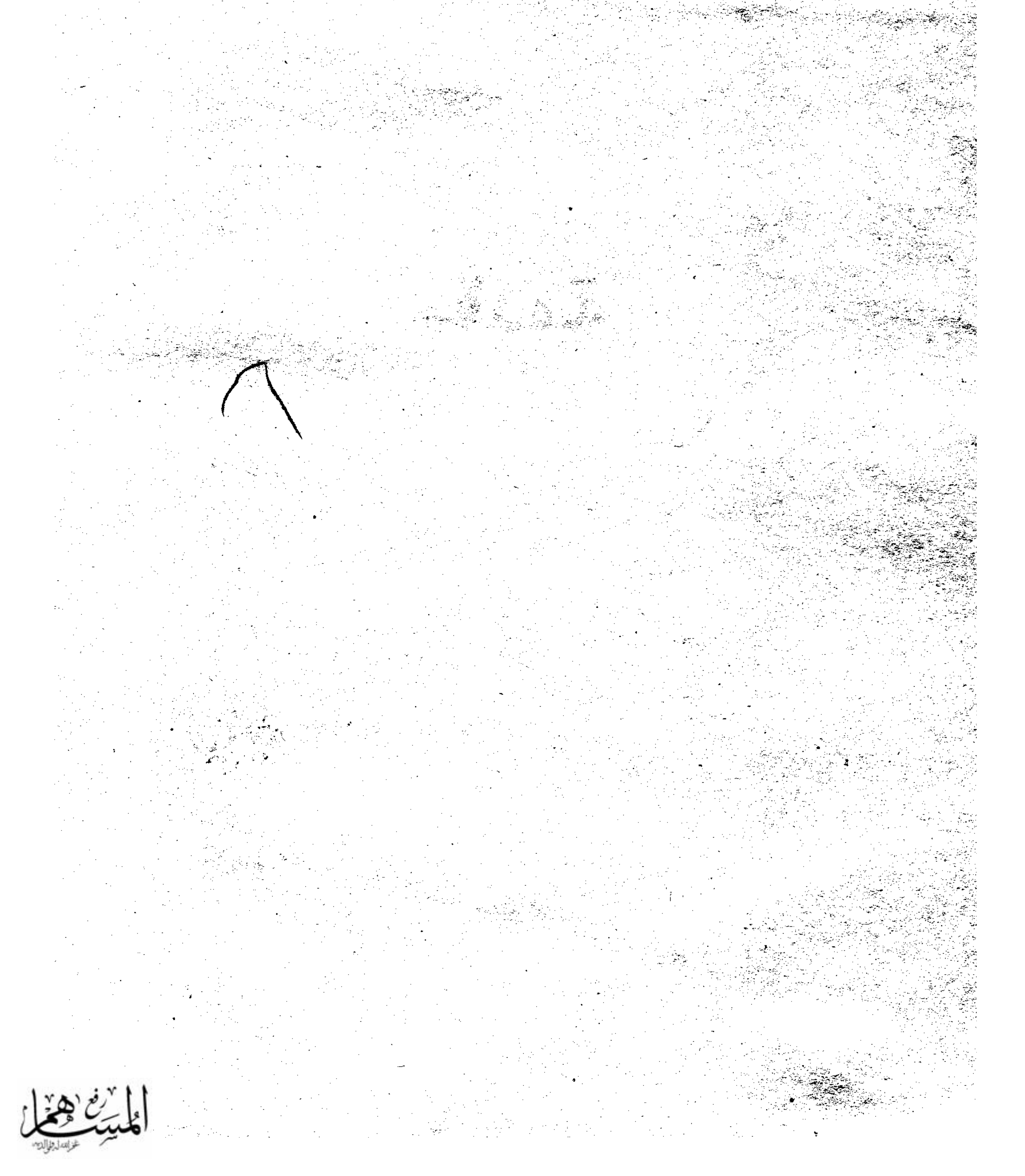
غير أننا سوف نظل ننبه إلى أخطار العلمانيين فى الوطن العربى والإسلامى ، فهؤلاء هم الطابور الخامس الذى أعدته أجهزة أعداء العروبة والإسلام ، فهم مزودون بعاملين مؤثرين هما : الإلحاد والحقد ، ولن يكفوا عن النباح فى وجه قافلة النور التى تدافع عن العروبة والإسلام ، ولكنهم لن يبلغوا من سعارهم أكثر مما يبلغه كلب القافلة : ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، ولن ينفعهم اللهاث !!!

* * *

الفصل الحادى عشر

بحث لغوى

حول كلمة (عقيدة)



أثار بعض المشتغلين بشئون الثقافة الإسلامية والفكر شبهة حول كلمة : « عقيدة » ، وأنها ليست عربية أو إسلامية ؛ يعني بذلك أن استعمالها لم يكن مألوفاً في الثقافة الإسلامية ، فهو استعمال دخيل على العربية ، منذ تمت ترجمة كتاب « العقيدة والشريعة في الإسلام » للمستشرق الألماني العالم أجنتس جولد تسيهر عام ١٩٠٨ ، ولذا فهو يعترض على أن يوصف الإسلام بأنه « عقيدة » ، ويرى أن من الأولى أن يوصف بوصف ورد في القرآن ، أو في السنة كالفطرة ، والصبغة ، وكلتا « الكلمتين وردت في كتاب الله » : س ١٣٨/٢ ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ ، وس ٣٠/٣٠ ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .

وقد قوّى الشبهة عندي أني لم أعثر على هذه الكلمة ابتداءً فيما بين يدي من المعاجم العربية الأصلية ، كلسان العرب ، وفي كثير من الكتب القديمة في الثقافة ، وفي الفكر الإسلامي ، وشعرت حينئذ بأن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث الجاد المستقصي ، في كل المظان اللغوية والأدبية ، كيما نمنح هذه الكلمة الصقيلة في ألسنتنا وأذواقنا ، الشائعة في ثقافتنا الخاصة والعامة ـ مزيداً من التفصيح .

ونستطيع في مستهل رحلتنا للبحث عن هذه الكلمة أن نقرر أنها لم ترد في القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وهما أعظم النصوص في تاريخ هذه العربية الخالدة ؛ فقد ورد في القرآن ألفاظ : (عَقَدَ ، وعَقَّدَ ، وعقود ، وعُقْدة ، وعُقَد) ، وهي جميعاً من مادة (ع ق د) التي اشتقت منها كلمة

(عقيدة) ، أما الحديث الشريف فلم يشر كتاب (مفتاح كنوز السنة) الذى وضعه بالإنجليزية الدكتور ا.ى.فنسك ، ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، وهو معجم مفهرس عام تفصيلى ، وضع للكشف عن الأحاديث المدونة فى البخارى ، ومسلم ، وأبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، والدارمى ، وموطأ مالك ، ومسندى زيد بن على وأبى داود الطيالسى ، ومسند ابن حنبل ، وطبقات ابن سعد ، وسيرة ابن هشام ، ومغازى الواقدى ـ لم يشر المعجم إلى وجود شىء من مادة هذه الكلمة فى مرجع من هذه المراجع الكبرى ، على كثرتها ، وبذلك نقرر مطمئنين أن الكلمة لم ترد فى الأدب النبوى .

أما كتب اللغة فأمرها أعجب ، إذ لم ترد كلمة (عقيدة) فى واحد من المعاجم الآتية :

(١) معجم (العين) ـ للخليل بن أحمد الفراهيدى ، على ترجيح نسبته إليه ، [ت ٢٦٠هـ] ، وهو مخطوطة مصورة بكلية دار العلوم .

(٢) معجم (الجمهرة) لابن دريد [ت ٣٢١هـ] .

(٣) معجم (الصحاح) للجوهرى [ت ٣٩٣هـ] ، وجاء فيه : اعتقد الشىءُ : صَلُبَ واشتد ، واعتقد كذا بقلبه » (انظر جـ١/٢٤٦) .

(٤) معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس [ت ٣٩٥هـ] ، وقد ذكر ما فى الصحاح بنصه تقريباً (انظر جـ٤/٨٦) .

(٥) معجم (المحكم والمحيط الأعظم) لابن سيده [ت ٤٥٨هـ] بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور حسين نصار .

(٦) معجم (المخصص) ، وهو كذلك لابن سيده .

(٧) معجم (أساس البلاغة) لجار الله محمود بن عمر الزمخشرى [ت ٥٣٨هـ] .

(٨) معجم (لسان العرب) لابن منظور المصرى [ت ٧٧١هـ] .

(٩) معجم (القاموس المحيط) لمجد الدين الفيروزباذى [ت ٨١٦هـ] .

(١٠) مجم (الكشاف عن اصطلاحات الفنون) للتهانوى [ت ١١٨٥هـ] .

(١١) معجم (تاج العروس) للزبيدى [ت ١٢٠٥هـ] .

وهكذا نجد هذه السلسلة الطويلة من المعاجم ، على تنوع اتجاهاتها ومستوياتها ، تتجاهل الكلمة أو تهملها .

بيد أننا نقف وقفة يسيرة عند التهانوى ، وهو حديث العهد نسبياً ، فقد خصص معجمه للمصطلحات الفنية التى شاع استعمالها فى العربية ، حتى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، ومع ذلك لم نجده يتعرض لتفسير كلمة (عقيدة) ، وهى مصطلح فلسفى شائع لدينا ، مع أنه لو تعرض لها ـ وهو ما كنا نوده ونتوقعه ـ لكان قد ألقى على تاريخها الأدبى ضوءاً مناسباً كما هو شأنه فيما تعرض له من المصطلحات الفنية ، حيث يورد ـ ماستطاع ـ شواهدها من القرآن ، ومن الحديث ، ومن الشعر العربى ، قديمه وحديثه .

بل وجدنا موقفه من الكلمة غريباً ، إذ يهملها فى ثنايا معجمه ، ويتحدث عن مصطلح آخر من مادتها هو (اعتقاد) [انظر جـ٩٥٤/٣] ، وذلك فى عبارته التى نوجزها : « الاعتقاد ، كالافتخار ، له معنيان : أحدهما : المشهور ، وهو حكم ذهنى جازم لا يقبل التشكيك ، والثانى : الغير المشهور ، وهو حكم ذهنى جازم أو راجح ، فيعم العلم : وهو حكم حازم لا يقبل التشكيك ، والاعتقاد المشهور ، والظن : وهو الحكم بالطرف الراجح ... ثم رجح أن يكون اليقين معنى ثالثاً للاعتقاد » .

وقد كان الظن بالتهانوى ، وهو موقفه ، أنه يرفض أن تكون كلمة

ان تستخدم للدلالة على مفهوم معين فى
ى ذلك يستخدمها مجموعةً (عقائد)
ى مفهوم من مفاهيم الاعتقاد ، كما
١/٢٣) . وربما فهمنا من ذلك أنه لم
ططلح الفنى ، بل هى تؤدى ـ فى نظره ـ

ما كتبه الأولون . لم نجد الكلمة فى
هوا شئون العقيدة ، وتحدثوا فى ماهيتها ،
طلة ، أو تعرضوا لذلك تعرضاً ، ومن بين

ـا ، وفى كتابيه : (البيان والتبيين)
ملام هارون .
٣هـ] ، حيث يذكر دائماً كلمتى
كلمة (عقيدة) ، والظن أن كلمة
ظر مقدمة التفسير جـ١ بتحقيق الأخوين

٣هـ] فى كتابه (الزينة فى الكلمات
الدكتور حسين الهمدانى) ، وقد تعرض ـ
كثيرة ، من بينها : الإسلام ، والإيمان
، والأمة ، والفطرة ، والصبغة ، والكفر ،
رض مطلقاً لكلمة (عقيدة) ، برغم أنه
سياق التى يتطلبها ، وأغلب الظن أنها لو

(٤) ابن النديم [ت ٥٤٨هـ] ، فى كتابه (الفهرست) ، وقد وجدناه حين يتحدث عن أبى جعفر محمد بن النعمان الأحول (ص ٢٥٨) يقول : « وكان حسن الاعتقاد » .

(٥) ابن حزم الأندلسى [ت ٤٥٦هـ] ، وهو يذكر دائماً فى كتابه (الفصل بين الملل والأهواء والنحل) كلمات : عقد ، ومعتقد ، واعتقاد ، دون أن يذكر (عقيدة) .

(٦) الشهرستانى [ت ٥٤٨هـ] ، وقد نحا منحى ابن حزم ، فى كتابه (الملل والنحل) ، ولعل مما يوثق نتيجة التطواف فى المصادر والمعاجم القديمة ، كما يؤنس بسلامة عملية التقصى هذه ـ أن نجد المستشرق الكبير (فيشر) لم يشر إلى الكلمة فى جذاذاته الموجودة فى حوزة المجمع ، مع أنه تقصى جميع المشتقات الأخرى من مادة (ع ق د) .

وحين وجدت ابن خلدون [ت ٨٠٨هـ] يقول فى مقدمته (ص ٣٢٥) مانصه : « ولهذا تنظر ما تراه فى (عقيدة) الرسالة لابن أبى زيد » ، ثم هو يستخدم الكلمة من بعد فى مواضع كثيرة ـ تفاءلت خيراً ، فقد ظننت أنى عثرت على مفتاح السر ، أو لمحة البدء فى حياة الكلمة ؛ فابن أبى زيد ـ الذى يعنيه ابن خلدون ـ هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ، أبو زيد النفزاوى القيروانى [ت ٣٨٦هـ] ، وهو ذو تاريخ متقدم كما نرى ، ولكنى وجدت الأستاذ خير الدين الزركلى قال فى كتابه الكبير (الأعلام ٤/٢٣٠) « وأشهر كتبه : الرسالة فى (اعتقاد) أهل السنة » وعندئذ تبخر تفاؤلى ، برغم أن عبارة ابن خلدون قد بعثت فىّ روحاً من الأمل فى العثور على استعمال الكلمة فى ثقافة القدماء ، إذ يبعد عن المعقول أن يكون ابن خلدون هو مخترعها أو مولدها .

وكانت مصادفة طيبة أن أقلب صفحات (المصباح المنير) للفيومى [ت ٧٧٠هـ] ، أى أنه معاصر لابن منظور المصرى صاحب لسان العرب ، ومواطن

له أيضاً ، وقد وجدت فيه ، فى باب العين والقاف وما يثلثهما مانصه : « واعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل : العقيدة ما يدين الإنسان به ، وله عقيدة حسنة : سالمة من الشك » .

وجاء من بعده على بن محمد الجرجانى [ت ٨١٦هـ] ، فذكر فى كتابه (التعريفات) ص١٠٢ أن : « العقائد : ما يقصد به الاعتقاد ، دون العمل » .

وهنا نقرر مطمئنين أن عبارة المصباح المنير السابقة تسجيل بداية دخول الكلمة إلى المعجم العربى ، بمعناها الذى صيغت له من قبل ، واستعملت فيه حتى الآن .

وجاء بعد ذلك فى العصر الحديث مجموعة من المعاجم والدوائر ، كلها نقلت عن المصباح وعن تعريفات الجرجانى ، مع تغيير بعض الألفاظ أحياناً ، ومن ذلك :

(١) أقرب الموارد ، لسعيد الخورى اللبنانى (مطبوع عام ١٨٨٩) ، قال فى معجمه جـ١٠١/٢ ما نصه : « العقيدة : ما عقد عليه القلب ، والعقيدة : الضمير ، والعقيدة : ما يدين الإنسان به ، يقال : له عقيدة حسنة .. أى : سالمة من الشك ، والجمع : عقائد ... ثم نقل عبارة التعريفات : العقائد : ما يقصد فيه نفس الاعتقاد ، دون العمل » .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ـ لفريد وجدى (جـ٥٨١/٦) قال : « العقيدة ما عقد عليه القلب » .

(٣) المعجم الوسيط ـ عمل المجمع اللغوى (جـ٦٢٠/٢) قال : « العقيدة : الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، والعقيدة فى الدين : ما يقصد به الاعتقاد ، دون العمل ، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل » .

وقد لاحظت فرقاً فى لغة المعاجم الحديثة بين مفهوم كل من الكلمتين : (اعتقاد ، وعقيدة) ، وهو ما يتضح من مقارنة ما مضى عن كلمة (عقيدة) بما قاله البستاني في دائرة معارفه ١٦٢٠/٢ : « الاعتقاد : اطمئنان القلوب على شيء ما يجوز أن يتحل عنه » .

على أننا اقتصرنا حتى الآن على متابعة وجود الكلمة فى المعاجم ، دون ما ذكرها من الكتب العلمية الإسلامية ، وأقدم ما وقع لنا حتى الآن ما قرأناه فى (الرسالة القشيرية) للإمام القشيرى [ت ٤٦٥هـ] ، وهى مؤلفة [عام ٤٣٧هـ] ، إذ قال فى أولها : « اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة ـ يقصد الصوفية ـ بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع » ، وقد استخدم الكلمة هنا مجموعةً ، والمفرد سابق فى الوجود على الجمع ، بداهة .

ووجدنا من بعده أبا حامد الغزالى [ت ٥٠٥هـ] يكثر من استعمال الكلمة ، بل يخصص لعلاج موضوعها فصلاً كبيراً فى كتابه (إحياء علوم الدين) .. أسماه : كتاب العقائد ، ومن نصوصه التى اخترناها قوله : « فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس ، بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ ، لا تحركه الدواهي والصواعق ، وعقيدة المتكلم ، الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل ؛ كخيط مرسل فى الهواء ... إلخ » .

وبذا يعود إلينا يقيننا بصحة الكلمة ، وتواتر استعمالها فى لغة القدماء وثقافتهم . غير أن لنا من بعد هذا ملاحظتين ، تتصل إحداهما باشتقاق الكلمة ، والأخرى بمعناها :

فأما من حيث اشتقاقها فهى (عقيدة) بزنة فَعيلة ، بمعنى مفعولة ، أى معقودة ، من الفعل (عَقَدَ) ، وهذه الزنة قياسية ، بمنزلة : نطيحة ، وأكيلة ،

وذبيحة ، وجمعها على فعائل ، فيقال : عقائد ، ونطائح ، وأكائل ، وذبائح ، كما يقال في غيرها ، مما ليس على معنى مفعول ، مثل : عقيرة ـ [بمعنى الصوت ـ يقال : رفع الرجل عقيرته ـ أي صوته ـ لا بمعنى معقورة] ـ عقائر جمعاً .

والقاعدة في هذا أن قياس ما كان على فعيلة أو مثالها ، مما قبل آخره حرف مد ـ أن يكون جمعه على فعائل ، مثل : صحيفة وصحائف ، ورسالة ورسائل ، وعجوز وعجائز ، فالباب مطرد .

وأما من حيث معناها فيعيننا على تحديده ملاحظة أن الكلمة لم تكن في الصدر الأول ، فهي إذن مولدة ، وقد كان الناس قبل توليدها يكتفون بكلمة (اعتقاد) ، وهي تدل على إيمان القلب بفكرة ما ، والتزامه بها ، أي أن دلالتها منحصرة في تصوير الرابطة الانفعالية بين القلب والفكرة موضوع الاعتقاد ، ولعلهم لم يكونوا يتصورون انفصالاً .. أيَّ انفصال ، للفكرة عن القلب ، إذ كانوا يتعاملون دائماً مع الإنسان ، وحدة لا انفصام لعنصريها السلوكي والمعرفي .

فلما تطور أمر الناس إلى التفكير في العلوم المحدثة ، وبدأوا يعانون مشكلات الفكر والفلسفة ، وجدوا بين أيديهم وعلى ألسنتهم كلمة (اعتقاد) ، وهي ذات دلالة على ما يشمل الفكرة ، والانفعال بها ، وهو اليقين ، وما يشمل كذلك مجرد العلم أو الظن ، على ما عليه تحليل التهانوي الذي سبق ، لكنهم إبان تلك الحقبة الحاسمة في تطور الفكر الإسلامي أحسوا بحاجتهم إلى أن يفصلوا ـ من الجانب التصوري ـ موضوع الاعتقاد ، وهو الفكرة ، عن العملية الانفعالية ، المتصلة بالقلب وبالسلوك ، فكان لجوءهم البارع إلى توليد هذا الاشتقاق من نفس المادة (ع ق د) .

وإنا لنلمح هذا الفصل بين الصورة الانفعالية والصورة التجريدية واضحاً

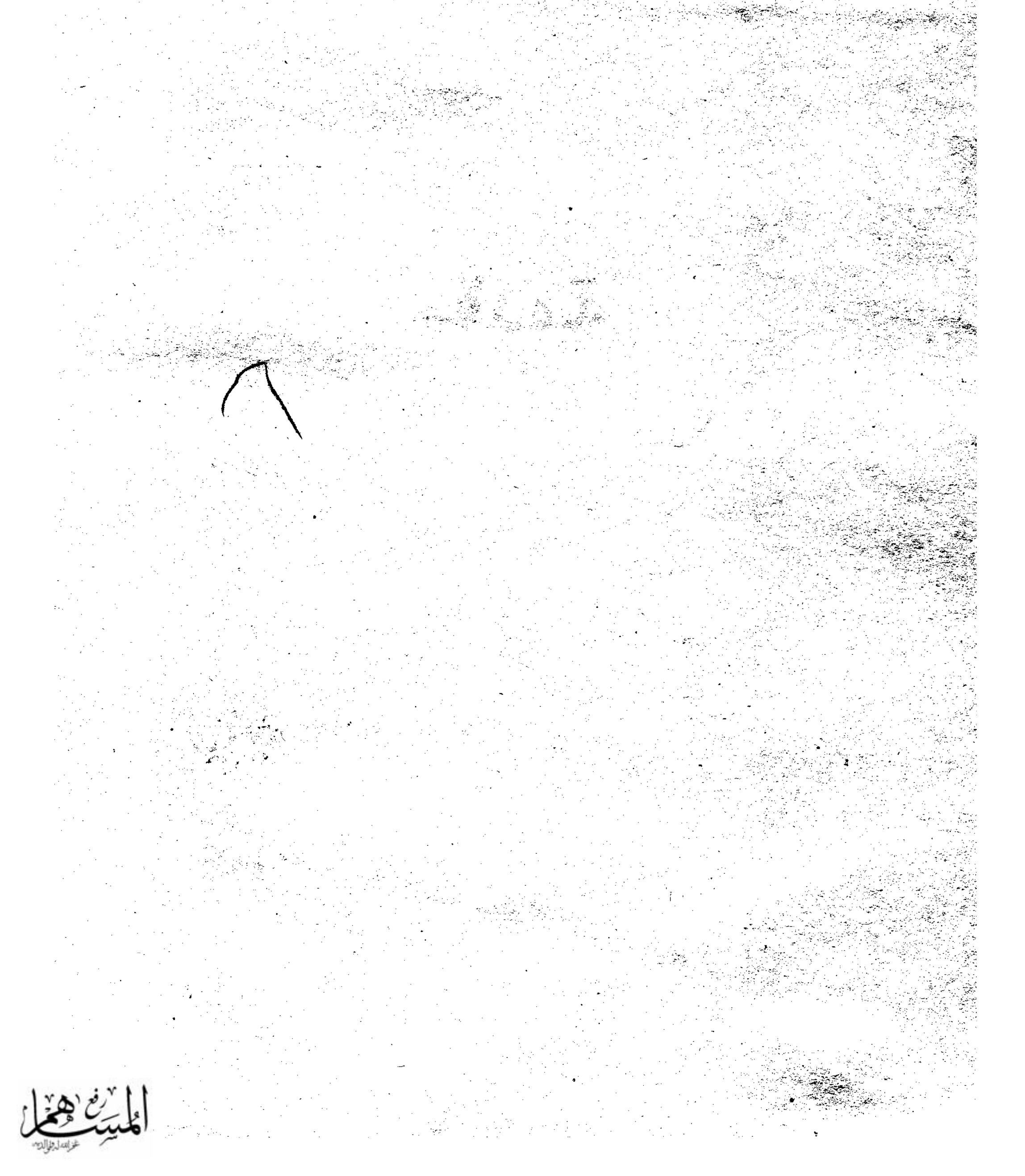
كل الوضوح فى كلام الغزالى المتقدم ، حين يضع لفظة (اعتقاد) بجوار العامى ، وكلمة (عقيدة) بإزاء المتكلم المجادل ، لما لاحظ من امتزاج عناصر السلوك المعرفية والعملية لدى الرجل العامى ، وتفسخ هذه العناصر فى شخصية أصحاب الجدل والكلام .

ولم يستخدم القدماء فى هذا الصدد كلمة (فكرة) ، لأنها لا تطلق إطلاقاً خاصاً ضيقاً ، بل هى رحبة الدلالة ، شاملة كل ما هو موضوع الفكر ، أما (عقيدة) فهى موضوع (الاعتقاد) كعقيدة وجود الله ، والإيمان بالغيب ، والبعث ، فهذه الأمور فى ذاتها (عقائد) ، وهى حين تخالط شغاف القلب تصبح (اعتقادات) ، حيث قد تحقق العقد بين (العقيدة) والقلب .

وربما كانت كلمة (معتقَد) بفتح القاف هى الخطوة الأولى نحو تجريد المفهوم الفلسفى للكلمة ، وهى شائعة فى لغة الطبرى ، ثم انتقل منها إلى استعمال الكلمة الجديدة التى نثق بأن نشأتها كانت فلسفية صوفية ، ونحدس أن ذلك كان خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

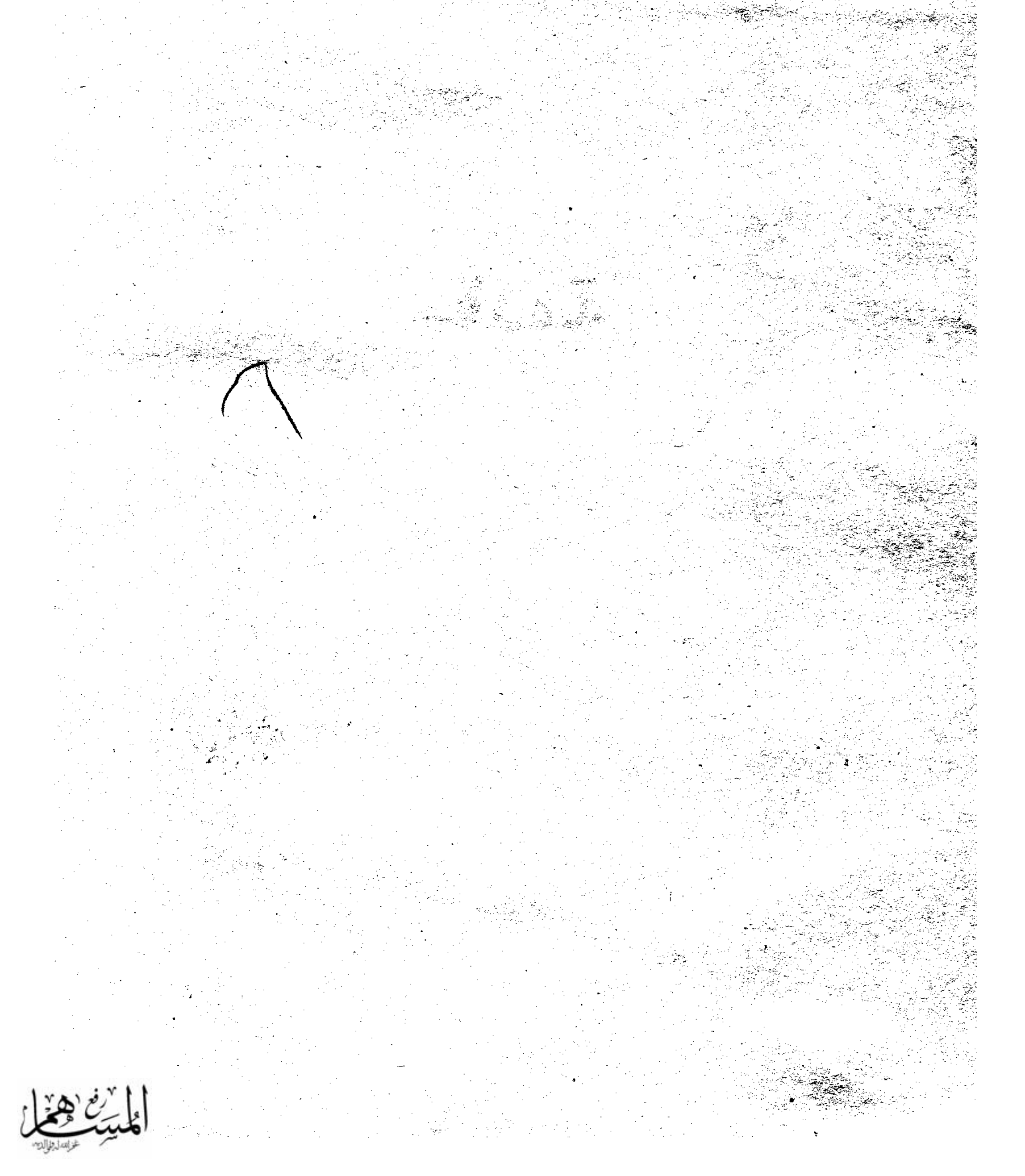
ولا زلت آمل أن نعثر على مراجع أخرى ، أو تآليف متقدمة قبل عام ٤٣٧هـ ، وردت فيها الكلمة مستعملة ، جمعاً أو مفرداً ، ليمكن فى ضوئها تحديد بداية استعمالها فى تاريخ اللغة العربية وثقافتها ، على وجه الدقة أو التقريب .

***





فهرس الموضوعات



* * *

